بلاغة أسلوب
(تقدم الواو على لام التعليل)
في القرآن الكريم معالم وتطبيق

إعداد

محمد السيد عبد الفتاح عنان

مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية

فرع جامعة الأزهر بالزقازيق

جمهورية مصر العربية

بلاغة أسلوب (تقدم الواو على لام التعليل)
في القرآن الكريم معالم وتطبيق

محمد السيد عبد الفتاح عنان

البريد الإلكتروني:mohamedanan.25@azhar.edu.eg

مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالزقازيق

الملخص:

يقصد هذا البحث إلى تسليط الضوء على أحد أساليب القرآن البلاغية، وهو أسلوب تقدم الواو على لام التعليل، بهدف الوصول إلى أسراره المتنوعة، ودلالاته الثرية، وقد اقتضى ذلك التأصيل له بلاغيا، من خلال تأمل كلام العلماء والخروج منه بإشارات ترشد إلى دلالات هذا الأسلوب، وقد مهد البحث للتأصيل البلاغي بالتأصيل النحوي، حيث كانت التوجيهات النحوية هي الأساس الذي بني عليه العلماء إشاراتهم البلاغية، وقد توصل البحث إلى بعض النتائج، من أهمها: أن هذا الأسلوب من الأساليب التي تفرد بها القرآن، حيث لم يقف البحث (حسب اطلاعه) على شواهد لهذا الأسلوب في غير القرآن، وأنه أسلوب ثري في دلالاته وإشاراته، فهو يفيد إما الإشارة إلى أن وراء أقدار الله حكما خفية، أو الإشارة إلى أن العلة المذكورة علة أصلية، أو الإشارة إلى أن العلة المذكورة علة إضافية.

الكلمات المفتاحية: الواو . لام التعليل . أسلوب . القرآن . بلاغة.

Rhetorical style (the waw precedes the lam of reasoning) in the Holy Qur'an In its roots and application

Muhammad Alsayed Abdul fattah Anan
Email: mohamedanan.٢٥@azhar.edu.eg
Teacher of rhetoric and criticism at the Faculty of Arabic Language, Al-Azhar University branch in Zagazig

Abstract:
This research aims to shed light on one of the rhetorical methods of the Qur'an, which is the method of presenting the waw before the lam of reasoning, with the aim of reaching its various secrets and rich connotations. This required rooting it rhetorically through contemplating the words of scholars and coming out of it with indications that guide the connotations of this method. The research paved the way for rhetorical rooting through grammatical rooting, as grammatical guidelines were the basis upon which scholars built their rhetorical references. The research reached some results, the most important of which are: This method is one of the methods unique to the Qur'an, as the research - to the best of its knowledge - did not find evidence for this method In other than the Qur'an, and it is a rich method in its connotations and indications, it is useful either in indicating that there is a hidden ruling behind God's decrees, or in indicating that the mentioned reason is an additional reason, or indicating that the mentioned reason is an original reason.

Keywords: waw - lam of reasoning - style - the Qur'an – Rhetorical.

□

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الخلق، وجعل في خلقهم وتدبير شئونهم حكما ومقاصد خفية، والصلاة والسلام على خير من فهم عن الله حكمه ومقاصده العلية، خير البرية، نبينا محمد (ﷺ), وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،،،

فلا يزال القرآن الكريم معجزة الله الخالدة على مر العصور والدهور، يهب متأمليه أسرارًا، ويمنحهم دلالات، ويفيض عليهم بالعطاءات، فخيره دائم، ومدده لا ينقطع، وأمده لا ينتهي، فهو لا يَخْلَق على كثرة الرد، كما قال الرسول الكريم (ﷺ).

وقد تنوعت جهات إعجازه، فمنها العلمي، والتشريعي، والغيبي، ومنها البلاغي، وهو أهم الجهات؛ لأنه هو الذي وقع به التحدي.

وقد لفت نظري وأنا أعمل في رسالتي للدكتوراه التي كان عنوانها: (الأسرار البلاغية للتعليلات النصية في آيات الأحكام) ظاهرة تقدم الواو على لام التعليل في القرآن، ومجيء الواو حاجزا (في الظاهر) بين التعليل والمعلل، حيث قابلتني آية وحيدة كانت هي حظي من هذا الأسلوب في آيات الأحكام، فشوقني ذلك للتوسع في دراسته، وتناوله في القرآن الكريم كله، فكان هذا البحث، والذي جاء بعنوان: "بلاغة أسلوب (تقدم الواو على لام التعليل) في القرآن الكريم معالم وتطبيق".

وكان الدافع لاختيار هذا الموضوع (غير ما سبق) ما يأتي:

١. أن هذا الأسلوب صورة من صور إعجاز القرآن الكريم في جانبه البلاغي، ودراسته، والكشف عن معالمه (بلا شك) من وسائل التأكيد على إعجاز القرآن، في عصر كثرت فيه الشبهات حول الكتاب العزيز.

٢. أن المفسرين في تناولهم لهذا الأسلوب قد غلبت عليهم الصناعة النحوية، وأهملوا الجانب البلاغي؛ حيث كان همهم الأكبر، وشغلهم الشاغل، هو

تصحيح الأسلوب من الناحية النحوية؛ فأراد البحث الكشف عن جانبه البلاغي، ومعرفة أسراره.

الدراسات السابقة:

ومع أهمية هذا الأسلوب لم أجد بحثًا بلاغيًا توفَّر عليه بالدراسة، ووقف على جوانبه المتنوعة، وجمع شتاته، وألم بأطرافه، وخصه بدراسة مستقلة، فلم يتناوله إلا شيخي الأستاذ الدكتور محمد الأمين الخضري، ضمن رسالته التي تقدم بها لنيل درجة الدكتواره، والتي كانت عنوانها: (الواو ومواقعها في النظم القرآني)[1]، فلم يكن الاهتمام منصبا على خصوص هذا الأسلوب، فلم يؤصل شيخي الجليل لهذا الأسلوب من الناحية النظرية، واكتفى بالجانب التطبيقي، كذلك فإنه اكتفى بالتمثيل ببعض النماذج، دون حصر كامل لشواهد هذا الأسلوب في القرآن.

أما هذا البحث فقد قام بالتأصيل لهذا الأسلوب، كما أنه قام باستقراء وتتبع جميع الشواهد التي غلب على الظن أنها من هذا الأسلوب؛ للوقوف على الأسرار المتنوعة والدلالات المختلفة التي تكمن وراءه.

خطة البحث:

وأما عن خطة البحث، فقد اشتملت على أربعة مباحث، تسبقهم مقدمة، وتعقبهم تتمة، وخاتمة، وفهارس.

المقدمة: تحدثت فيها عن أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، وخطته، والمنهج الذي سرت عليه.

المبحث الأول: معالم أسلوب تقدم الواو على لام التعليل.

المبحث الثاني: الإشارة إلى أن وارِد أقدار الله حِكَمًا تخفى على البشر.

المبحث الثالث: الإشارة إلى أن العلة المذكورة هي العلة الأصلية.

---

(١) طبعت هذه الرسالة في كتاب من إصدار مكتبة وهبة، سنة ١٤٣٦هـ. ٢٠١٥م.

المبحث الرابع: الإشارة إلى أن العلة المذكورة علة إضافية.

الخاتمة.

تتمة.

الفهارس:

أولا: فهرس المصادر والمراجع.

ثانيا: فهرس الموضوعات.

منهج البحث:

وأما عن منهج البحث، فهو المنهج الاستقرائي التحليلي، الذي يعتمد على استقراء وتتبع جميع شواهد هذا الأسلوب من القرآن الكريم، وتحليلها بالنظر في السياق والمقام؛ للوصول إلى الأسرار والدلالات.

وبعـــد:

فقد بذلت في هذا البحث جهدًا كبيرًا، ووقتًا طويلاً، فإن أكن قد وفقت، فتلك مِنَّة من الله ومحض فضله عليَّ، وإن تكن الأخرى فحسبي أنني حاولت واجتهدت, والنقص من عادة البشر, وما الكمال إلا لله وحده، عليه توكلت وإليه أنيب.

الدكتور/ محمد السيد عبدالفتاح عنان

المبحث الأول

معالم أسلوب تقدم الواو على لام التعليل

المتتبع لهذا الأسلوب في التراث يرى أن إشارات العلماء له كان المثير لها هو مخالفة القرآن به المألوف من طرائق البيان؛ لذا كانت التفاسير هي الخزانة التي حوت تلك الإشارات.

وقد تنوعت نظرة العلماء لهذا الأسلوب ما بين نظرة تقعيدية نحوية، ونظرة جمالية بلاغية؛ لذا يجدر بالدراسة تأصيل هذا الأسلوب من هاتين الناحيتين، لعل ذلك يكشف عن معالمه، وتتضح به أغراضه، وذلك قبل الدخول فى الجانب التطبيقي.

ويبدأ البحث بالتأصيل النحوي قبل التأصيل البلاغي؛ لأن رؤية البلاغيين تنبني على رؤية النحويين.

المطلب الأول

التأصيل النحوي

يرى النحويون أنه لا يجوز أن تسبق الواو لام التعليل؛ "لأن العلة لا تعطف على المعلل"[1] فاللام متعلقة بالفعل قبلها، لا يجوز فصلها بفاصل، حتى ولو كانت واو العطف.

فإن سبقت الواو لام التعليل في بعض الشواهد القرآنية، مثل قول الله (تعالى): ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي = عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي، دار صادر، بيروت، (دط)، (دت)، ٦/ ١٥٠.

وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[1]، فإن النحويين يذهبون في تأويلها إلى ثلاثة توجيهات:

الأول: أن تكون الواو عاطفة على علة محذوفة؛ فيكون التقدير في الآية السابقة: ليسهل عليكم، ولتكملوا العدة.

وهذا الرأي ذكره الزجاج، يقول: "ومعنى اللام والعطف ههنا معنى لطيف، هذا الكلام معطوف محمول على المعنى، المعنى: فعل الله ذلك ليسهل عليكم ولتكملوا العدة"[2].

والكلام على هذا التقدير من قبيل العطف، أي عطف العلة على العلة، وهذا ما صرح به الطيبي بقوله: "الحاصل: أنه على التقدير الأول [أي تقدير معلل محذوف]: عطف الجملة على الجملة، وعلى الثاني [أي تقدير علة محذوفة]: عطف المفرد على المفرد"[3].

الثاني: أن تكون الواو استئنافية، وما بعدها جملة مستقلة، فتكون اللام متعلقة بفعل معلل محذوف يدل عليه المذكور، ويكون التقدير في الآية السابقة: ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون فعل ذلك.

وهذا الرأي ذكره الفراء، يقول: "وهذه اللام في قوله: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ لام كي لو أُلقيت كان صوابًا، والعرب تدخلها في كلامها على إضمار فعل بعدها، ولا تكون شرطًا للفعل الذي قبلها وفيها الواو، ألا ترى أنك تقول: جئتك

---

(١) جزء من الآية رقم (١٨٥) من سورة البقرة.

(٢) معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ١/ ٢٥٤.

(٣) حاشية الطيبي على الكشاف = فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، تحقيق: إياد محمد الغوج وآخرون، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م ، ٩/ ٥٩٤.

لتحسن إلي، ولا تقول: جئتك ولتحسن إلي، فإذا قلته فأنت تريد: ولتحسن إلى جئتك، وهو في القرآن كثير"(١).

والكلام على هذا التقدير من قبيل الاستئناف، أي: عطف الجملة على الجملة، كما صرح الطيبي في النص المنقول سابقا.

ويرى الزمخشري أن الواو مع هذا التقدير اعتراضية، وقد صرح بهذا في قوله (تعالى): ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾(٢)، يقول: "فإن قلت: قوله (تعالى): ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ كيف موقعه؟ قلت: هو كلام معترض، ومعناه: ولتكون الكفة آية للمؤمنين فعل ذلك"(٣).

وقد تابع أبو السعود الزمخشري حيث فرَّق بين الواو مع تقدير علة محذوفة، والواو مع تقدير معلل محذوف؛ فقال في الآية نفسها: "واللام متعلقة إما بمحذوف مؤخر، أي: ولتكون آية لهم فعل ما فعل من التعجيل والكف، أو بما تعلق به علة أخرى محذوفة من أحد الفعلين، أي فعجل لكم هذه أو كف أيدي الناس لتغتنموها ولتكون الخ؛ فالواو على الأول اعتراضية، وعلى الثانية عاطفة"(٤).

---

(١) معاني القرآن، يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، الطبعة الأولى، ١/ ١١٣.

(٢) الآية رقم (٢٠) من سورة الفتح.

(٣) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: مصطفى حسين أحمد، دار الريان للتراث، القاهرة، ودار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م، ٤/ ٣٤١.

(٤) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي (بيروت)، (دط)، (دت)، ٨/ ١١٠.

وفي الحقيقة أن الكلام المعترض مستأنف، والواو الاعتراضية استئنافية، وهذا ما صرَّح به الجمل في قوله (تعالى): ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾(١)، يقول: "جملة ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ معترضة بين الشرط وجوابه، وواوها ليست عاطفة، بل للاستئناف"(٢).

الثالث: أن تكون الواو زائدة، واللام متعلقة بالفعل قبلها، وهذا الرأي مردود؛ لأنه من المسلَّم به أن القرآن الكريم كلام رب العالمين لا زيادة فيه، وقد حكى هذا الرأي أبو حيان وأشار إلى ضعفه(٣).

وبعد استبعاد ذلك التأويل الضعيف، يبقى لنا التأويل الأول والثاني؛ للبحث عما وراءهما من ملامح بلاغية، قد تؤدي إلى المفاضلة بينهما.

المطلب الثاني

التأصيل البلاغي

حينما نظر العلماء للجانب البلاغي المستفاد من تقدم الواو على لام التعليل، كانت لهم إشارات وتلميحات بلاغية تناسب كل توجيه نحوي من التوجيهين السابقين.

أولا: **الأسرار البلاغية المترتبة على تقدير علة محذوفة**:

عند حمل الأسلوب على تقدير علة محذوفة؛ فإن الزمخشري يرى أن ذلك يفيد الإشارة إلى أن وراء أقدار الله حكما خفية، وأن هناك من المصالح والألطاف

(١) جزء من الآية رقم (٢٤) من سورة البقرة.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين = الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان الجمل، المطبعة العامرة الشرقية، مصر، ١٣٠٢هـ ١/ ٣١.

(٣) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ ، ٢/٤٤.

ما لا يخطر بالبال ولا يستطيع البشر بفهمهم القاصر إدراكها، حيث جعل العلة المحذوفة مبهمة، وقدرها بقوله: ليكون كيت وكيت.

يقول في قوله (تعالى): ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ (١): "﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فيه وجهان: .... والثاني أن تكون العلة محذوفة، وهذا عطف عليه، معناه: وفعلنا ذلك ليكون كيت وكيت وليعلم الله، وإنما حذف للإيذان بأن المصلحة فيما فعل ليست بواحدة؛ ليسليهم عما جرى عليهم، وليبصرهم أن العبد يسوءه ما يجرى عليه من المصائب، ولا يشعر أن لله في ذلك من المصالح ما هو غافل عنه"(٢).

وفي آية أخري يرى الزمخشري أن إبهام العلل يفيد مع الإشارة إلى أن وراء أقدار الله حكما خفية الإشارة إلى كثرة العلل وأن المصالح المترتبة على أقدار الله مصالح جمة، يطول تعدادها.

يقول في قوله (تعالى): ﴿ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ ﴾(٣): "وليبتلي الله وليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص، ويمحص ما في قلوبهم من وساوس الشيطان فعل ذلك، أو فعل ذلك لمصالح جمة، وللابتلاء، والتمحيص"(٤)

ولا توافق الدراسة الزمخشري فيما ذهب إليه من إفادة الإبهام هنا معنى التكثير، وترى أن ذلك من تحميل النص ما لا يحتمل، وأنه يكفي الإشارة إلى خفاء العلل؛ لأن التكثير وإن كان مناسبا للمقام، ويمكن أن يتماشى مع الإشارة إلى خفاء

(١) جزء من الآية رقم (١٤٠) من سورة آل عمران.
(٢) تفسير الزمخشري، ١/ ٤٢٠.
(٣) جزء من الآية رقم (١٥٤) من سورة آل عمران.
(٤) تفسير الزمخشري، ١/ ٤٢٩.

العلل، إلا أنه يحتاج إلى دليل؛ لأن الأفعال في العادة يكون لها علة أو علتان، أما أن يكون لها علل كثيرة فذلك خارج عما هو مألوف، ويحتاج إلى قرينة.

وإذا كان الزمخشري في قوله (تعالى): ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ قد قدر العلة مبهمة فإن أبا السعود يقدرها معينة، يقول:

"والجملة معطوفة على علة أخرى لها معتبرة، إما على الخصوص والتعيين، محذوفة لدلالة المذكورة عليها لكونها من مباديها، كأنه قيل نداولها بينكم وبين عدوكم ليظهر أمركم وليعلم الخ؛ فإن ظهور أعمالهم وخروجها من القوة إلى الفعل من مبادى تمييزهم عن غيرهم، ومواجب تعلق العلم الأزلي بها من تلك الحيثية....إلخ"(١).

ويُفهم من كلام أبي السعود أن الأسلوب حينئذ يفيد الاهتمام بالعلة المذكورة؛ لأنها هي الثمرة والنتيجة؛ فهي العلة الأصلية، وما قبلها من علة محذوفة مجرد وسيلة وسبب، ولا شك أن النتيجة أهم من الوسيلة، لذا خُصت بالذكر؛ فهي المقصود من الكلام.

ولعل الرازي قد فهم فهما قريبا من فهم أبي السعود حينما قدر الواو زائدة في قوله (تعالى): ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ (٢)، يقول: "اختلفوا في (الواو) في قوله:

(١) تفسير أبي السعود، ٢/ ٩٠.

(٢) الآية رقم (٧٥) من سورة الأنعام.

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾، ذكروا فيه وجوها: الأول: الواو زائدة، والتقدير: نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليستدل بها ليكون من الموقنين...إلخ"(١)

ويفهم من كلام الرازي أن الاستدلال سبب، واليقين نتيجة، وتخصيص اليقين بالذكر للإشارة إلى أهميته؛ لأنه الغاية والهدف المقصود، لكن الرازي جعل الواو زائدة وليست عاطفة كما كانت عند أبي السعود.

ودلالة هذا الأسلوب على أهمية العلة المذكورة لكونها هي الثمرة والنتيجة تفهم (أيضا) من كلام ابن عاشور في قوله (تعالى): ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾(٢)، يقول:

"وقوله: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ﴾ عطف على علة مقدرة دل عليها قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ لأن المشار إليه التفصيل البالغ غاية البيان، فيعلم من الإشارة إليه أن الغرض منه اتضاح العلم للرسول، فلما كان ذلك التفصيل بهذه المثابة علم منه أنه علة لشيء يناسبه، وهو تبين الرسول ذلك التفصيل، فصح أن تعطف عليه علة أخرى من علم الرسول (ﷺ)، وهي استبانته سبيل المجرمين؛ فالتقدير مثلا: وكذلك التفصيل نفصل الآيات لتعلم بتفصيلها كنهها، ولتستبين سبيل المجرمين، ففي الكلام إيجاز الحذف"(٣).

---

(١) تفسيرالرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ، ١٣/ ٣٥.

(٢) الآية رقم (٥٥) من سورة الأنعام.

(٣) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م ، ٧/ ٢٦٠.

فاتضاح العلم للرسول (ﷺ) وفهم الآيات حق فهمها هى السبيل الموصل لاستبانة سبيل المجرمين؛ فالمقصود هو الدلالة على أهمية العلة المذكورة؛ لذا خصت بالذكر دون ما يمهد لها السبيل.

وإذا كان أبو السعود قد فُهم من كلامه أن تقدير علة محذوفة يفيد الدلالة على أهمية العلة المذكورة من حيث كونها العلة الأصلية، فإن ابن عاشور يفهم من كلامه أنه يفيد الإشارة إلى أهمية العلة المذكورة، ولكن من حيث كونها زيادة في التعليل، وإضافة على العلة الأصلية المحذوفة.

يقول في تفسيره لقوله (تعالى): ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾[1] : "﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، عطف على محذوف يؤذن به قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾الآية وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ ﴾ الآية، فإن قتلهم المشركين وإصابة أعينهم كانا الغرض منه هزيمة المشركين، فهو العلة الأصلية، وله علة أخرى وهي أن يبلي الله المؤمنين بلاءً حسنًا"[2].

فالعلة المحذوفة هي العلة الأصلية، والعلة المذكورة علة إضافية، وخصت بالذكر للتنبيه على زيادتها في التعليل، وإضافتها على العلة الأصلية، فهي خصوصية تستوجب الاهتمام بها، يقول ابن عاشور:

"الاعتبارات الطارئة تقدم في الكلام البليغ على الاعتبارات الأصلية، أن الاعتبارات الأصلية لتقررها في النفوس تصير متعارفة؛ فتكون الاعتبارات الطارئة أعز منالا"[3]

(١) الآية رقم (١٧) من سورة آلأنفال.

(٢) التحرير والتنوير، ٩/ ٢٩٦.

(٣) التحرير والتنوير، ١١/ ١٨٦.

ولعل الدلالة على أهمية العلة المذكورة لكونها زيادة في التعليل تفهم من كلام الزمخشري في قوله (تعالى): ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ ﴾[1]، يقول: "وحفظا مما حمل على المعنى؛ لأن المعنى: إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظا من الشياطين، كما قال (تعالى): ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾"[2].

فالكلام هنا وإن كان عن المفعول لأجله إلا أنه لا يختلف كثيرا عن لام التعليل، حيث يفهم من استشهاده بقوله (تعالى): ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾[3] أن الحفظ من الشياطين غرض إضافي فوق التزيين؛ فالمقصود هو التنبيه على أهمية المذكورة لكونها علة إضافية.

ومن خلال إشارات العلماء السابقة يمكن تلخيص القول بأن هذا الأسلوب الشيق يفيد مع تقدير علة محذوفة ثلاثة أسرار بلاغية:

الأول: الإشارة إلى أن وارء أقدار الله حِكَما قد تخفى على البشر.

الثاني: الإشارة إلى أهمية العلة المذكورة من حيث كونها علة أصلية.

الثالث: الإشارة إلى أهمية العلة المذكورة من حيث كونها علة إضافية.

ثانيا: الأسرار البلاغية المترتبة على تقدير معلل محذوف:

أما عند حمل الأسلوب على أن هناك معلل محذوف، فإن العلماء قد صرحوا أن ذلك يفيد الاهتمام بالعلة المذكورة، مثله مثل تقدير علة محذوفة.

يقول الطيبي: "فإن قلت: لم يُقدر المعلل مؤخراً؟ قلتُ: فائدةُ هذا الأسلوب، وهو أن تُجاء العلة بالواو للاهتمام بشأن العلة المذكورة؛ لأنه إما أن يُقدر علة

(١) الآية رقم (٦، ٧) من سورة الصافات.

(٢) تفسير الزمخشري، ٤/ ٣٥.

(٣) جزء من الآية رقم (٥) من سورة الملك.

أخرى ليعطف عليها، فيكون اختصاص ذكرها لكونها أهم، وإما أن يُقدر معلل، فيجب أن يكون مؤخراً، ليشعر تقديمها بالاهتمام"(١).

فالعلماء قد فهموا من الأسلوب عند تقدير معلل محذوف الاهتمام بالعلة المذكورة؛ فنصبوا لذلك دليلا هو تقدير المعلل المحذوف مؤخرا وتقديم العلة؛ ليفيد ذلك الاهتمام.

وإذا كان الطيبي يرى أن سبب الاهتمام هو التقديم فإن أبا السعود يرى أن سبب الاهتمام هو القصر فهذا الأسلوب يفيد قصر المعلل على العلة المذكورة قصرا حقيقيا مجازيا(٢)؛ للإشارة إلى أهمية العلة المذكورة؛ فهي الأصل الأصيل، وغيرها من مستتبعاتها؛ لذا لم يعتد بغيرها من العلل، وليس القصر لبيان انحصار العلل في العلة المذكورة.

يقول في قوله (تعالى): ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾(٣): "﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ متعلقة بمحذوف مؤخر، والجملة مقرر لما قبلها، أي: وليكون من زمرة الراسخين في الإيقان، البالغين درجة عين اليقين من معرفة الله (تعالى)، فعلنا ما فعلنا من التبصير البديع المذكور، لا لأمر آخر؛ فإن الوصول إلى تلك الغاية القاصية كمال مترتب على ذلك التبصير لا عينه، وليس القصر لبيان انحصار فائدته في ذلك، كيف لا، وإرشاد الخلق وإلزام المشركين كما سيأتي من فوائده بلا مرية، بل لبيان أنه الأصل الأصيل، والباقي من مستتبعاته"(٤).

---

(١) حاشية الطيبي، ٩/ ٥٩٤.

(٢) مصطلح القصر المجازي هو نفسه مصطلح القصر الإدعائي، والتعبير بمصطلح القصر المجازي مع القرآن من باب التأدب وعدم إطلاق لفظ الادعاء على القرآن الكريم.

(٣) الآية رقم (٧٥) من سورة الأنعام.

(٤) تفسير أبي السعود، ٣/ ١٥٢.

وإذا كان أبو السعود يصرح بأن هذا الأسلوب يفيد القصر الحقيقي المجازي فإن الزمخشري يشير إلى ذلك عن طريق تقدير المعنى في قوله (تعالى): ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾[1]، يقول: "والمعنى: وللإحسان إلى المؤمنين فعل ما فعل، وما فعله إلا لذلك إن الله سميع لدعائهم عليم بأحوالهم"[2]؛ فيفهم من كلامه الاهتمام بالعلة المذكورة وكأنها المقصد الوحيد؛ فهي علة مهمة؛ لأنها من باب الرعاية والعناية بالمؤمنين، فهو سميع لدعائهم عليم بأحوالهم، وليس القصر لبيان انحصار العلل في العلة المذكورة؛ فالسياق يشير إلى أن هزيمة المشركين من أهداف رمي الله معهم، بل هي الهدف الأصلي.

وإذا كان أبو السعود يرى أن تقدير فعل مؤخر يفيد القصر الحقيقي المجازي، فإنه يرى (أيضا) أنه يفيد القصر الإضافي حيث قدر المعنى في قوله (تعالى): ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [3] بقوله: "وللابتلاء المذكور فعل ما فعل، لا لعدم العناية بأمر المؤمنين ونحو ذلك".

فيفهم من هذا التقدير معنى القصر الإضافي، أي أن الله قدر الهزيمة للابتلاء المذكور لا لعدم العناية بأمر المؤمنين، وذلك لتسلية المؤمنين والتخفيف عنهم.

وإذا كان أبو السعود قد فهم القصر الإضافي مناسبا للمقام، فإنه هو نفسه يفهمه غير مناسب للمقام حيث يقدر المعنى في قوله (تعالى): ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾[4] بقوله: "وليذيقكم

(١) جزء من الآية رقم (١٧) من سورة الأنفال.
(٢) تفسير الزمخشري، ٢/ ٢٠٨.
(٣) جزء منالآية رقم (١٤٠) من سورة آل عمران.
(٤) جزء من الآية رقم (٤٦) من سورة الروم.

وليكون كذا وكذا يرسلها لا لأمر آخر لا تعلق له بمنافعكم"[١]؛ فالمقام لا يحتمل هذا الأمر الآخر؛ لأن المقام مقام امتنان وتعداد للنعم؛ فالمخاطب لا يشك في هذه المنافع حتى يكون هذا القصر.

وكما خالف البحث أبا السعود يخالف الرازي في فهمه للقصر الإضافي من قوله (تعالى): ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [٢]، يقول: "الإراءة قد تحصل وتصير سببا لمزيد الضلال كما في حق فرعون قال (تعالى): ﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [٣]، وقد تصير سببا لمزيد الهداية واليقين، فلما احتملت الإراءة هذين الاحتمالين قال (تعالى) في حق إبراهيم (عليه السلام): إنا أريناه هذه الآيات ليراها ولأجل أن يكون من الموقنين لا من الجاحدين"[٤].

والبحث يخالف الرازي في ذلك لأن المقام لا يحتمل هذين الاحتمالين؛ لأن المقام مقام حديث عن نبي كريم؛ فالإراءة لا بد أن يكون غرضها الهداية، ولا تحتمل هذين الاحتمالين.

لذا ترى الدراسة أن القصر الإضافي يصح في بعض المقامات، وليس في كلها، فيصح في مقام التسلية؛ حيث يظن المخاطب أن ما وقع ليس فيه عناية بشأن المبتلى، فيأتي هذا الأسلوب ليبين أن ما قدره الله فيه خير للمكلف وليس لعدم العناية به، فهو ينفي شيء يمكن أن يسبق إلى وهم السامع، أما باقي

(١) تفسير أبي السعود، ٦٣/٧.
(٢) الآية رقم (٧٥) من سورة الأنعام.
(٣) الآية رقم (٥٦) من سورة طه.
(٤) تفسير الرازي، ٣٧/١٣.

المقامات التي جاء فيها هذا الأسلوب فالقصر الإضافي يكون غير ملائم لها، حيث لا يظن المخاطب أصلا شيئا آخر.

ومن خلال إشارات العلماء السابقة يمكن تلخيص القول بأن هذا الأسلوب يفيد مع تقدير معلل محذوف سرين بلاغيين:

الأول: الاهتمام بالعلة المذكورة.

الثاني: القصر الإضافي.

وبعد ذكر الأسرار البلاغية المترتبة على كل من التوجهين النحويين لهذا الأسلوب، يبقى النظر فيما ينبغي السير عليه في الجانب التطبيقي من هذا البحث.

والمتأمل يرى أن تقدير علة محذوفة أكثر ثراءً من تقدير معلل محذوف؛ لسببين:

الأول: أنه يوضح سبب الاهتمام بالعلة المذكورة فهي إما علة أصلية أو إضافية، أما تقدير معلل محذوف فإنه لا يشير إلى ذلك، وإنما يشير إلى الاهتمام فقط.

الثاني: أن الإشارة إلى أن وراء أقدار الله حكما تخفى على البشر المستفاد من تقدير علة مبهمة أكثر وقعا في التسلية من القصر الإضافي المستفاد من تقدير معلل مؤخر؛ لأنه يشير إلى علة أو علل أخرى، أما القصر الإضافي فإنه ينبه فقط على العلة المذكورة.

وانطلاقًا من هذا الثراء، فإن البحث يختار التوجيه الأول ليسير عليه، ويحلل من خلال أسراره البلاغية شواهد هذا الأسلوب في القرآن.

وبناء على ذلك، يمكن تقسيم الجانب التطبيقي ثلاثة مباحث تتلو هذا المبحث التأصيلي[1]، على النحو الآتي:

المبحث الثاني: الإشارة إلى أن وارِد أقدار الله حِكَما قد تخفى على البشر.

المبحث الثالث: الإشارة إلى أن العلة المذكورة هي العلة الأصلية.

المبحث الرابع: الإشارة إلى أن العلة المذكورة علة إضافية.

(١) المتعارف عليه في مثل هذه البحوث التي تتناول التأصيل والتطبيق أن يتم تقسيمها قسمين: الأول يتناول الجانب التأصيلي، والثاني يتناول الجانب التطبيقي، إلا أن البحث قد عدل عن هذا؛ نظرا لعدم التوازن في عدد الصفحات بين الجانبين، ورأي تقسيمه أربعة مباحث، الأول في الجانب التأصيلي، والثلاثة الأُخر في الجانب التطبيقي.

المبحث الثاني

الإشارة إلى أن وارء أقدار الله حِكَما تخفى على البشر

بعد ما بين البحث في المبحث السابق معالم هذا الأسلوب النظرية، ينتقل هنا إلى الجانب التطبيقي، وأول ما يقابلنا من ذلك إشاراته إلى الحكم الخفية وراء أقدار الله.

فلا شك في أن كل ما يفعله الله فيه حكمة، وكل أقداره فيها منفعة ورحمة، وأن الخير كل الخير فيما يريده الله بالمكلفين، ولكن أحيانا يبدو من القدر جانب الابتلاء، والامتحان، والألم، وتخفى الحكمة، فلا يستطع العقل البشري بقصوره فهمها، وإدراك ما وراء القدر من مصالح عليا ومنافع خفية.

ويأتي القرآن الكريم في العديد من المواطن لينبه المكلفين إلى أن القدر قد يأتي في ظاهره شر لكن في باطنه خير عميم، وأن وراء أقدار الله حكما لكنها خفية.

وكأن القرآن الكريم يريد أن يقول للمكلفين: إنه ليس شرطا أن يكشف الله لكم عن حكمة أفعاله، والغاية من وراء أقداره، يقول الله (تعالى): ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [1]، وإنه (أحيانا) تأبى عقولكم البشرية استيعاب الحكمة الربانية؛ لذا يجب عليكم الصبر، والرضا، وإحسان الظن بالله في جميع الأوقات.

وقد تنوع ذلك ما بين التصريح والتلميح؛ فمن التصريح قوله (تعالى): ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [2]، فهذه الآية تبين أن ما يراه المكلف شرا قد يطوي تحته حكما خفية، ويكون في مضمونه الخير الكثير، فكما يقال: رب ضارة نافعة.

---

(١) الآية رقم (٢٣) من سورة الأنبياء.

(٢) جزء من الآية رقم (٢١٦) من سورة البقرة.

ومن التلميح قصة موسى والخضر؛ فهي مليئة في قصصها الثلاث بالعبر والعظات التي ترشد إلى أن أقدار الله قد يكون ظاهرها شرًا، لكن وراءها حكمة كبيرة وخيرًا عظيمًا(١).

ومن طرائق التلميح لهذه الحقيقة أسلوب تقدم الواو على لام التعليل؛ فهو يأتي (أحيانًا) بقصد إخفاء العلل للإشارة إلى أن وارء أقدار الله حِكَما تخفى على البشر؛ فيقدر العلماء العلة المحذوفة مبهمة، ويقولون إن التقدير: ليكون كيت وكيت، ليفهم من الإبهام تلك الحكم الخفية والمصالح التي تأبى عقول البشر إدراكها.

والمتأمل في الآيات التي ورد فيها هذا الأسلوب يجد أن هذا الوجه يأتي في مقام التسلية والتخفيف، وذلك لما فيه من الإشارة إلى المصالح والمنافع الخفية التي تصحب الابتلاء؛ مما يسهم بقدر كبير في التخفيف، ويدعو إلى تمام التسليم وكمال الانقياد لقضاء الله (ﷻ).

وقد تمثل هذا المقام في ثلاثة مقامات فرعية، هي:

أولاً: تسلية المؤمنين بسبب الهزيمة يوم أحد.

ثانيًا: تسلية المؤمنين بسبب اتهام اليهود لهم بالإفساد في الأرض.

---

(١) إخفاء الحكمة لا يقتصر على القضاء والقدر، وإنما يمتد إلى أحكام الشريعة الإسلامية؛ فمن محاسن الشريعة الإسلامية ومكارمها أنها بنيت على أساس رعاية مصالح العباد في الدنيا والآخرة، وهذه المصالح قد تبديها الشريعة وتظهرها؛ فيعلمها المكلفون؛ وذلك تأليفا قلوبهم، وشرحا لصدورهم، وحثا لهم على الالتزام بالتكاليف، وقد تخفيها وتسترها تربيةً لهم على روح الانقياد والتسليم لأمر الله، يقول ابن السمعاني: "وجه انقسام الشرع إلى هذين القسمين هو أن بعضها لا يعقل معانيه ليتحقق الإسلام لأمر الله (ﷻ)، وبعضها ما يعقل معناه ليتم شرح الصدور بتعليل ما يعقل معناه". قواطع الأدلة في الأصول، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني، تحقيق: محمد حسن محمد حسن اسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ . ١٩٩٩م، ٢/ ٩٩.

ثالثًا: تسلية السيدة مريم عليها السلام.

أولا: تسلية المؤمنين بسبب الهزيمة يوم أحد:

يقول الله (تعالى):

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ (١)

تأتي هذه الآية في سياق الحديث عن هزيمة أحد، وفيها يخفف الله وقع هذه الهزيمة على نفوس المؤمنين؛ فقد جاءت بعد نهيهم عن الضعف والحزن في قوله (تعالى): ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٢).

ويأتي أسلوب تقدم الواو على لام التعليل في قوله: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (٣)، حيث تقدمت الواو على لام التعليل، وفصلت بين التعليل والمعلل، وهو قوله (تعالى): ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾(٤) .

وقد جاء هذا الأسلوب للإشارة إلى أن وارء أقدار الله حِكَما ومصالح قد تخفى على البشر، وأن ما أصاب المؤمنين من هزيمة، وإن كان في ظاهره ألم وشر، لكن في باطنه خير عميم، وأن هناك من العلل والألطاف الخفية ما لا يخطر بالبال؛ فالتقدير: نداولها ليكون كيت وكيت، وليعلم الله الذين آمنوا، بتقدير علة مبهمة.

---

(١) الآية رقم (١٤٠، ١٤١) من سورة آل عمران.

(٢) الآية رقم (١٣٩) من سورة آل عمران.

(٣) جزء من الآية رقم (١٤٠) من سورة آل عمران.

(٤) جزء من الآية رقم (١٤٠) من سورة آل عمران.

يقول البيضاوي: "﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، عطف على علة محذوفة، أي: نداولها ليكون كيت وكيت، وليعلم الله؛ إيذانًا بأن العلة فيه غير واحدة، وأن ما يصيب المؤمن فيه من المصالح ما لا يعلم"(١).

ولا شك في أن هذه الإشارة تؤدي إلى التسلية والتخفيف عن المؤمنين، وتُطَيِّب خواطرهم، وتجبر نفوسهم، وتحثهم على تمام التسليم، وكمال الانقياد لقضاء الله.

ويؤكد هذه الإشارة السياق في قوله (تعالى): ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، فهو ينبه أن كل شيء يجري في هذا الكون يكون بتقدير الله ومشيئته، وأن ما حدث من هزيمة للمسلمين إنما كان بقضاء الله وقدره، والتذكير بالقضاء والقدر يُفهم منه (عن طريق مستتبعات التراكيب) الإشارة إلى الحكم والمصالح الخفية وراء ما قدره الله وقضاه؛ لأن الله لا يفعل شيئا إلا لحكمة، وإن خفيت علينا في بعض الأحيان؛ فالقدر كله خير، ورحمة، وعدل، وحكمة، يقول ابن حزم: "كل أفعاله (تعالى) عدل وحكمة؛ لأن الله (تعالى) واضع كل موجود في موضعه"(٢).

وإن كان أسلوب تقدم الواو على لام التعليل أفاد إضمار العلل وإبهامها، فإن أسلوب التعليل في قوله (تعالى): ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ (٣) يفيد التصريح ببعض العلل، والتصريح ببعض

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ٢/ ٤٠.

(٢) المحلى بالآثار، ابن حزم علي بن أحمد بن سعيد، دار الفكر، بيروت، ١/ ٣٨.

(٣) الآية رقم (١٤٠، ١٤١) من سورة آل عمران.

العلل، هو نوع آخر من التسلية لأولئك الذين تتوق نفوسهم لمعرفة الحكمة من وراء الهزيمة، فإن كان الكُمَّل موقنين بحكمة الله، وإن لم تظهر لهم، فإن الله طيَّب خاطر من دونهم ببعض العلل؛ لتهدأ نفوسهم، ويعلموا علمًا يقينيًا أن ما أصابهم فيه مصلحة لهم، فالله قدر الهزيمة ليتحقق علمه (ﷻ) بتمييز المؤمنين عن غيرهم، وليكرم بعضًا منهم بالشهادة، وليطهرهم ويخلصهم من ذنوبهم ومن المنافقين، وليمحق الكافرين ويستئصلهم رويدًا رويدًا.

والنظم التركيبي للعلل المذكورة يشير إلى لطف الله ورحمته بالمؤمنين:

فأول ما يقابلنا من ذلك التعبير بالعلم في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾، فهو من باب التمثيل، بمعنى: فعلنا ذلك مثل من يريد أن يعلم الثابت على الإيمان من غير الثابت[1]، فالله يريد أن يبين ما علمه للناس كافة؛ ليظهر المنافقون، ويعلمهم المؤمنون؛ فيتجنبوا شرهم، ويسلم المجتمع من أذاهم.

وقد يكون التعبير بالعلم مقصودًا به المجازاة[2]، وهذا (أيضًا) من باب التسلية، فالله يريد أن يقول للمؤمنين: إنكم حينما ثبتم في المعركة، وظهرت قوة إيمانكم، أنتم مجازون على ذلك، والثواب ينتظركم في الدار الآخرة.

والتعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ المستجمع لكل صفات الجلال والجمال؛ لزرع البشرى في نفوس المؤمنين؛ فالله بصفاته هذه يرعاهم بتجنيبهم شر المنافقين، أو بمجازاتهم وإعطائهم الثواب الكبير في الآخرة.

وإيثار التعبير بالفعل في قوله (تعالى): ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، دون الاسم فيقال مثلا في غير القرآن: (المؤمنين)؛ للتعريض بالمنافقين، والإشارة إلى خلو قلوبهم من أي أثر للإيمان، فالله (ﷻ) يريد فقط أن يعلم من في قلبه مثقال ذرة من إيمان؛ لذا عبر بالفعل دون الاسم الذي يدل على الثبوت.

---

(١) تفسير الزمخشري، ٤١٩/١.

(٢) تفسير الزمخشري، ٤١٩/١.

والمتأمل في لفظ ﴿وَيَتَّخِذَ﴾ يراه يشع بمعاني الاصطفاء والتقريب، وأن الشهداء اختارهم الله بعناية، وأن ما أصابهم من موت هو في حقيقته اصطفاء لهم(١).

وتأتي جملة الاعتراض: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لنفي ما قد يتوهم من أن الله حينما ابتلى المؤمنين بالهزيمة ونَصَرَ الكافرين قد أحب الكافرين، فالمقصود بالظالمين هنا الكافرون(٢).

وقد يكون المقصود بالظالمين المنافقين، وتكون جملة الاعتراض هذه لبيان المفارقة وشدة المباينة بين المؤمنين الذين اصطفاهم الله وخصهم بالشهادة، وبين المنافقين الذي لا يحبهم الله(٣).

والتعبير بلفظ ﴿لَا يُحِبُّ﴾ بدلا من يكره مثلا في غير القرآن؛ لفتح الباب أمام الظالمين للرجوع عن ظلمهم، فلو أنهم تخلوا عن ظلمهم لأحبهم الله، وهذا من رحمة الله بالناس أجمعين.

والتعبير بمادة (محص) في قوله ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ يدل على التخلية من شوائب القلوب، فأصل المحص تخليص الشيء مما فيه من عيب(٤)، ومجيئها على صيغة (فعَّل) يدل على تمام التخلية والتنقية؛ فهي تستخدم للتكثير والمبالغة في الفعل(٥).

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود، ٢/٩٠.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، ٩/ ٣٧٤، والتحرير والتنوير، ٤/ ١٠٤.

(٣) ينظر: تفسير أبي السعود، ٢/ ٩٠.

(٤) ينظر: المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: وائل أحمد عبدالرحمن، المكتبة التوفيقية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠١٥م، ص ٤٦٦.

(٥) ينظر: شذا العرف في فن الصرف، أحمد الحملاوي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ . ٢٠٠٠م، ص ٢٩.

وإظهار لفظ الجلالة في موضع الإضمار لإظهار تمام العناية بأمر تمحيص قلوب المؤمنين وتنقيتها مما يشوب الإيمان فيها(١).

والمقابلة في قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وضحت الصورة، وبينت التنافي بين صورة المؤمنين، وصورة الكافرين.

وتسلية المؤمنين والتخفيف عنهم، ضوء يسري في جنبات النظم التركيبي للآية الكريمة؛ فأسلوب الشرط في صدر الآية: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ يساهم في تسلية المؤمنين بتذكيرهم بهزيمة المشركين يوم بدر، وأنهم مع ذلك عاودوهم بالقتال يوم أحد؛ فهم أولى منهم بالصبر، وعدم الضعف(٢).

والتعبير (بإن) التي تفيد الشك في قوله (تعالى): ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ﴾؛ للإشارة إلى رحمة الله بالمؤمنين، وأن ما يصيبهم من ابتلاءات بالنسبة للنعم والخيرات أمر نادر.

وقد يكون التعبير (بإن) للدلالة على أن ما يشعرون به من الهزيمة هو مجرد شعور؛ فهو أمر مشكوك فيه، ففي مضمونه النصر القريب، وقد حدث، وانتصر المسلمون في غزوة الخندق.

والتعبير بالقوم للدلالة على اجتماع المشركين وقوة محاولتهم هزيمة المسلمين(٣)، وفي ذلك بيان للمفارقة؛ فهم وإن كان في ظاهرهم القوة، لكن في باطنهم الضعف، فقد أصابهم القرح وهزموا يوم بدر.

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود، ٢/ ٩١.

(٢) ينظر: تفسير الزمخشري، ١/ ٤١٨.

(٣) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤٠٤هـ. ١٩٨٤م، ٥/٧٨.

وتمتد التسلية، ويسري ضوء التخفيف؛ ليصل إلى القلوب، بتقرير تلك القاعدة الكونية، والسنة الربانية: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، فمن سنن الله في كونه أن لا يبقى شيء من أحوال الدنيا، ولا يستقر أثر من آثارها؛ فأوقات الظفر والغلبة تتداول بين الناس، والأيام لا يدوم حالها على شأن واحد(١).

والتعبير باسم الإشارة الموضوع للبعيد والمشار به إلى ما بعده ﴿وَتِلْكَ﴾ للتفخيم والتعظيم؛ فهو يشير إلى أوقات الظفر والغلبة، يقول ابن عاشور: "والإشارة بتلك إلى ما سيذكر بعد، فالإشارة هنا بمنزلة ضمير الشأن لقصد الاهتمام بالخبر"(٢).

والتعبير بالفعل المضارع ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ للدلالة على تجدد المداولة عصرا بعد عصر، والإشارة إلى أنها سنة من سنن الله في كونه(٣).

والحديث بضمير المتكلم المعظم لنفسه في قوله ﴿نُدَاوِلُهَا﴾؛ للدلالة على أن تلك سنة من سنن الله، لا يستطيع أحد مخالفتها.

وإذا كانت التسلية في السابق للمؤمنين فإن التسلية هنا لنوع خاص منهم هم ضعاف الإيمان، ويصاحبها التربية، وذلك في قول الله (تعالى):

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، ٩/ ٣٧٢.

(٢) التحرير والتنوير، ٤/ ١٠٠.

(٣) ينظر: تفسير أبي السعود، ٢/ ٨٩.

بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ (١)

تأتي هذه الآية في سياق الحديث عن غزوة أحد أيضًا، وتتحدث عن ضعاف الإيمان، فقد ساورهم الشك حين اضطربت الصفوف، وخافوا على أنفسهم من القتل، وقالوا لو كان لنا رأي ومشورة ما خرجنا، وما انهزمنا، ونسوا أن الأسباب (وإن عظمت) إنما تنفع إذا لم يعارضها القضاء والقدر، فأولئك الذين كُتب عليهم أن يقتلوا في ساحة المعركة، لابد أن يقتلوا، فلو كانوا في بيوتهم، لخرجوا إلى الأماكن التي قدر الله أن يقتلوا فيها، وقُتلوا.

وذهب أكثر العلماء إلى أن الحديث عن المنافقين، ولكن سياق الآية يشير إلى أن المقصود هم ضعاف الإيمان، فقوله (تعالى): ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ يشير إلى أنهم ليسوا من أهل الجاهلية الذين هم الكفار والمنافقون، فهم يظنون ظنا مثل ظن أهل الجاهلية، فهم (بالتالي) على الإيمان لكن لم تفارق قلوبهم آثار الجاهلية، وقوله (تعالى): ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ ﴾ يؤكد أنهم من أهل الإيمان لكن خالطت قلوبهم الشوائب، فالله لا يمحص قلوب الكفار والمنافقين(٢).

ويأتي أسلوب تقدم الواو على لام التعليل في قوله (تعالى): ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ حيث تقدمت الواو على لام التعليل، وفصلت بين التعليل

(١) الآية رقم (١٥٤) من سورة آل عمران.

(٢) ينظر: تفسير المنار = تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م ، ٤/ ١٥٣، وزهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي ، ٣/ ١٤٦١، والتفسير الحديث، دروزة محمد عزت، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٨٣ هـ ، ٧/ ٢٤٧.

والمعلل، وهو فعل مقدر مفهوم من السياق السابق؛ فالتقدير: فعل ما فعل من شدة، وهول، وقتل؛ ليكون كيت وكيت وليبتلي، وجعله بعض العلماء هو البروز المذكور، وذلك يأباه الذوق؛ لأن مقتضى المقام بيان حكمة ما وقع من شدة وهول، لا بيان حكمة البروز المفروض(١).

وقد جاء هذا الأسلوب لإبهام العلل والإشارة إلى أن وراء أقدار الله حكما خفية لا يستطيع البشر إدراكها، فما وقع من هزيمة هو في باطنه خير لكن لا يستطيع البشر بفهمهم القاصر الوصول إليه؛ فالتقدير: قدر الله ما حدث يوم أحد ليكون كيت وكيت وليبتلي الله، وذلك لتسلية وتربية هذا الصنف الضعيف من المؤمنين، فهو ينبههم إلى أن ما خافوا منه كان وراءه حكم خفية، ومصالح قد لا تُدرك؛ وذلك لحثهم على الإيمان المطلق بالله والتسليم لأقداره.

ويؤكد دلالة الأسلوب على الحكم الخفية السياق في قول الله (تعالى): ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾، حيث صرح بأن ما حدث من قتل إنما حدث لأنه قضاء الله النافذ؛ وذلك يستتبع الإشارة إلى الحكم والمصالح الخفية وراء أقدار الله؛ لأن أفعال الله وأقداره كلها حكمة، فالابتلاء إن كان ظاهره مضرة لكن في باطنه خيرًا خفي.

وإن كان أسلوب تقدم الواو على لام التعليل أفاد إضمار العلل، فإن التعليل في قوله (تعالى): ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ يفيد التصريح ببعضها؛ للمزيد من الإقناع بالمصلحة المترتبة على هذا الابتلاء، فهؤلاء ضعاف الإيمان قد لا يكفيهم الإشارة إلى الحكم والمصالح الخفية، وإنما قد يتطلعون لمعرفة الحكمة بعينها من وراء ذلك، فيأتي أسلوب التعليل ليخبرهم أن من المصلحة في ذلك أن يظهر الله ما في صدورهم فيصلحها، ويخرج

(١) ينظر: تفسير أبي السعود، ٢/ ١٠٢.

من قلوبهم مما يخالط الإيمان من بعض الأوهام، ولا شك في أن التصريح ببعض العلل أدعى لتربية هذه القلوب الضعيفة بالتأكيد على حكمة الله.

يقول الرازي: "قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾، وذلك لأن القوم زعموا أن الخروج إلى تلك المقاتلة كان مفسدة، ولو كان الأمر إليهم، لما خرجوا إليها، فقال (تعالى): بل هذه المقاتلة مشتملة على نوعين من المصلحة"(١).

والتعبير بلفظ الجلالة الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى في قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ﴾؛ لتربية المهابة في قلوب هؤلاء، فهم ضعاف الإيمان، ومحتاجون لاستشعار الخوف من الله.

والتسلية والتخفيف عن هؤلاء الذين هم من أهل الإيمان لكن خالطت قلوبهم الشوائب، ضوء خافت يتراءى من وراء الالتفات من الغيبة في قوله (تعالى): ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ إلى الخطاب في قوله (تعالى): ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾؛ فهو لتنبيههم في البداية إلى خطئهم بالغيبة، فهم خارجون عن الخطاب كأنهم ليسوا مؤمنين، ثم بعد ما بينت لهم الآية خطأهم، التفتت إليهم بالخطاب عنايةً بهم، وتقريبًا لهم، وتسيلةً وتخفيفًا عنهم.

وفي مقابل التسلية تأتي التربية، ومن أساليب التربية في الآية الكريمة: تصحيح المفاهيم بالتأكيد على أن ما وقع من الهزيمة إنما هو من قضاء الله، وأن قضاء الله نافذ مهما كان، ويأتي ذلك عن طريق أمرين:

أولاً: الجملة الاعتراضية في قوله (تعالى): ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾، أي أن تقدير الأمور كلها لله (ﷻ) وحده، وإن العاقبة ستكون للمتقين، وذلك ردًا على قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾، أي: لم يكن لنا رأي ومشورة.

(١) تفسير الرازي، ٩/ ٣٩٧.

ثانيًا: المبالغة في قوله: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ أي أن القتل واقع لا محالة، فلو كنتم في بيوتكم لخرجتم إلى حيث قتلتم، حيث لم يقتصر على تحقيق القتل نفسه، بل عيَّن مكانه أيضا[1]، وذلك ردًا على قولهم: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾.

والجملتان مصدرتان بقوله: ﴿قُلۡ﴾، وكأن الله يريد أن يعلمهم أن هذه الردود منه (ﷻ) زيادة في ترهيبهم، ودفعهم إلى تصحيح الاعتقاد.

(١) تفسير أبي السعود، ٢/ ١٠٢.

ثانياً: تسلية المؤمنين بسبب اتهام اليهود لهم بالإفساد في الأرض:

وإذا كانت التسلية للمؤمنين في السابق بسبب الهزيمة يوم أحد، فإن التسلية هنا كانت بسبب اتهام يهود بني النضير لهم بالإفساد في الأرض، وذلك في غزوة بني النضير، حينما قطعوا نخيلهم نكاية لهم.

يقول الله (تعالى):

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ ﴾[1]

روى الترمذي في سبب نزول هذه الآية، عن ابن عباس أنه قال: "أمروا بقطع النخل فحك في صدورهم، فقال المسلمون: قد قطعنا بعضًا وتركنا بعضًا، فلنسألن رسول الله (ﷺ) هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله (تعالى): ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا ﴾"[2].

وذكر الواحدي في أسباب النزول أن اليهود قالوا: "زعمت يا محمد أنك تريد الصلاح، فمن الصلاح عقر الشجر المثمر وقطع النخيل؟"[3].

---

(١) الآية رقم (٥) من سورة الحشر.

(٢) سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، ومحمد فؤاد عبدالباقي، وإبراهيم عطوة عوض، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، ٥/ ٤٠٨، حديث رقم (٣٣٠٣)، وقال أبو عيسى: "هذا حديث حسن غريب".

(٣) أسباب نزول القرآن، علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م ، ص: ٤٣٧.

فهذه الآية جاءت لتبين أن ذلك لم يكن فسادًا، وأن ما تم من قطع النخيل أو تركه كان بأمر من الله ووحي منه لرسوله، أو بإرادة الله ومشيئته؛ حتى يزداد غيظ اليهود، وتتضاعف حسرتهم.

ويأتي أسلوب تقدم الواو على لام التعليل في قوله: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، حيث تقدمت الواو على لام التعليل، ووقفت حائلاً دون ربطها مباشرة بالمعلل، وهو قوله (تعالى): ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

وهذا الأسلوب يفيد الإشارة إلى الحكم والمصالح الخفية المترتبة على هذا القطع؛ فقد رماهم اليهود بالإفساد في الأرض كما ورد في سبب النزول، فجاء هذا الأسلوب ليقول لهم: إن ذلك لحكمٍ ومصالح تخفى عليكم، وليذل اليهود، وذلك يسهم في تسلية المؤمنين والتخفيف عنهم، وإدخال المسرة والبهجة عليهم(١)، فالتقدير: ليكون كيت وكيت، وليذل الفاسقين، فإذلال الفاسقين هو العلة الظاهرة لهم التي يستطيعون فهمها؛ لذا صرح بها، وهناك علل أخرى لا يستطيعون إدراكها، لم تصرح الآية بها.

ويؤكد دلالة الأسلوب على خفاء العلل السياق في قوله (تعالى): ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ حيث يصرح بأن هذا القطع إنما كان بقضاء الله، ووحي منه، وإرادة عليا، وهذا يستلزم أن يكون هذا القطع لحِكَم قد تخفى علي المؤمنين، ولا يدركونها؛ لأن أفعال الله كلها حكمة.

ولعل القشيري فهم ذلك الخفاء في الحكم الذي أشار إليه قوله (تعالى): ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، حيث يقول: "وفي هذا دليل على أن الشريعة غير معللة، وإذا جاء

(١) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤/ ٢٨٨.

الأمر الشرعي بطل طلب التعليل"(١)، فقوله: غير معللة، أي أن في أمور الشريعة حِكَمًا ومصالح قد تخفى على العقل البشري، ولا يستطيع إدراكها.

وإن كان تقدم الواو على لام التعليل أفاد إضمار العلل، فإن التعليل في قوله: ﴿وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ يفيد التصريح ببعض العلل؛ شفاءً لبعض الصدور التي تتوق لمعرفة الحكمة من وراء ذلك، أي ليذل الكفار ويخزيهم؛ "لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون في أموالهم كيف أحبوا، ويتصرفون فيها حسبما شاؤا من القطع والترك، يزدادون غيظا ويتضاعفون حسرة"(٢).

والتعبير عن الذل هنا بمادة الخزي؛ لأنها تفيد بجانب معنى القهر معنى التمكن، يقال: خزا الرجل يخزوه: ساسه وقهره، وخزوت الفصيل: إذا أجررت لسانه(٣)، وهذا يشير إلى أن قطع النخيل كان فيه نوع من الهزيمة النفسية التي كانت سببًا في التمكن منهم وإجلائهم.

والجزاء هنا من جنس العمل؛ لأنه كانوا يدَّعون "العز والشجاعة والتأييد من الله؛ لأنهم على الدين الحق، وأنه لا يتطرق إليه نسخ"(٤)، وقد حكى القرآن عنهم ذلك، فقال: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (٥) ، فجعل جزاءهم هو الذل والمهانة؛ فضحًا لهم، ومبالغةً في إذلالهم.

---

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، الطبعة الثالثة، ٣/ ٥٥٨.

(٢) تفسير أبي السعود ٨/ ٢٢٧.

(٣) ينظر: لسان العرب، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور المصري، تحقيق عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ. ٢٠٠٢م ، مادة: خزا.

(٤) نظم الدرر ١٩/ ٤١٨.

(٥) الآية رقم (٢) من سورة آلحشر.

والتعبير بمادة الفسق عن اليهود؛ للدلالة على أصالتهم في الخروج عن الصواب والحق(١)، وفي الخروج عن الميثاق الذي بينهم والرسول، وأن الخزي جزاء فعلهم.

وتخصيص اللينة بالقطع للإشارة إلى رعاية الله لهم حيث أمروا بقطع اللينة واستبقاء العجوة والبرانية اللتين هما من كرام النخيل ليستفيدوا منهما بعد الحرب، وقد يكون اللينة هي الأفضل فيكون تخصيصها بالقطع لزيادة النكاية في اليهود(٢).

ويأتي الطباق بين قطعتم وتركتم في قوله: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾؛ ليفيد الشمول الذي يوحي بقوة التسلية والتخفيف عن المؤمنين، فكل ما فعلوه كان بوحي من الله وأمر منه لرسوله، أو بمشيئته وإرادته.

ثالثاً: تسلية السيدة مريم عليها السلام:

وإذا كانت التسلية في السابق للمؤمنين، فإن التسلية هنا للسيدة مريم (عليها السلام) في قوله (تعالى):

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾(٣)

لما ذكر الله (ﷻ) قصة زكريا عليه السلام، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجه ولدًا زكيًا طاهرًا مباركًا، عطف بذكر قصة مريم، في إيجاده ولدها عيسى (عليه السلام) منها من غير أب، وقد تدرج السياق من القصة الأولى إلى

(١) ينظر: نظم الدرر ١٩/ ٤١٨.

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود ٨/ ٢٢٧.

(٣) الآية رقم (٢٠، ٢١) من سورة مريم.

الثانية؛ لأن وجه العجب في الأولى هو ولادة العاقر من بعلها الشيخ الكبير، ووجه العجب في الثانية هو ولادة العذراء من غير بعل، وهذا أعجب وأغرب(١).

وترسم هاتان الآيتان مشاعر هذه السيدة الطاهرة البتول، حينما جاءها جبريل يبشرها بولد من غير زواج، حيث اختلطت فيها مشاعر التعجب من حدوث ذلك، والخوف من تبعاته: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾.

ويأتي أسلوب تقدم الواو على لام التعليل في قوله (تعالى): ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾، حيث فصلت الواو بين التعليل والمعلل، وهو قوله (تعالى): ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾.

وقد جاء هذا الأسلوب للإشارة إلى أن وراء هذا الخلق مصالح ومنافع أخرى خفية لا تستطيع مريم (عليها السلام) إدراكها غير جعله آية للناس، فالتقدير: ليكون كيت وكيت، ولنجعله آية للناس.

ولا شك في أن ذلك يسهم في تسلية السيدة مريم عليها السلام، والتخفيف عنها، وإدخال المسرة والبهجة عليها؛ فما تعجبت وخافت منه، وهو خلق الغلام بغير أب، وراؤه مصالح تخفى عنها، فهو أمر خارق للعادة متعلق بقدرة الله.

ويؤكد هذه الإشارة السياق القبلي في قوله (تعالى): ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، حيث يقرر أن هذا الخلق من آثار القدرة الإلهية، وفعل خالص لله وحده، ولا شك في أن هذا يفيد عن طريق مستتبعات التراكيب الإشارة إلى كثرة الحكم والمصالح المترتبة على هذا الخلق؛ لأن أفعال الله كلها عدل وحكمة.

(١) ينظر: نظم الدرر، ١٢/ ١٨٢.

كما يؤكد هذه الإشارة السياق البعدي في تذييل الآية بقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾، فمعنى مقضيًا (على أحد وجهين) أي أمرًا جديرًا بالتقدير والفعل لتضمنه حكمًا بالغة ومصالح عظيمة(١).

وتسلية السيدة مريم والتخفيف عنها ضوء يسري في جنبات النظم التركيبي للآية؛ فقوله (تعالى): ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ تأكيد على أن الأمر صادر من الله لا رجعة فيه، ويكون المعنى: الأمر كذلك من أني أرسلنى ربك لأهب لك غلامًا زكيًا من غير أن يكون له أب، وهذا نوع من التسلية؛ لأنه يدفعها للتسليم والرضا بما تحتم قضاؤه(٢).

وقد يكون قوله (تعالى): ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ لتأكيد ما قالته من عفتها وطهارتها، وأنها لم يمسسها بشر، ويكون المعنى: الأمر كما ذكرتِ من أن بشرا لم يمسسكِ، ومن أنكِ لم تكوني في يوم من الأيام بغيا، وهذا نوع آخر من التسلية؛ لأنه يطمئنها بتصديق كلامها، ونفي أي شائبة شكٍ فيها(٣).

ويأتي قوله (تعالى): ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ ردًا على تعجبها، فالعادة تقتضي أن يأتي المولود من ذكر وأنثى، لكن هذا المولود خارج عن العادة، ومن قبيل تفعيل قدرة الله، ولا شك في أن توضيح الأمر لها يذهب بتعجبها، ويخفف القضاء على نفسها.

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦١.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير = تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير ، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م، ٤/ ٩.

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير، ٤/ ٩.

والتعبير بلفظ الربوبية ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾؛ لتأكيد الرعاية والعناية بهذه الطاهرة العفيفية، فالذي قدَّر هذا المولود هو الذي يرعاها ويرزقها؛ فلا شك أنه لطيف بها.

ثم يأتي تذييل الآية بقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ للتسلية والتخفيف أيضا؛ فمعنى مقضيًا، أي: ثابتا في اللوح المحفوظ لا مجال لرده؛ لذا يجب أن تسلمي وتطمئني، أو فيه من الحكم والمصالح الخفية، فكان حقيقًا أن يُقضى(١).

(١) ينظر: تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦١.

المبحث الثالث

الإشارة إلى أن العلة المذكورة هي العلة الأصلية

إذا كان الأسلوب في المبحث السابق يفيد الإشارة أن وراء أقدار الله حكما تخفى على البشر، فإنه في هذا المبحث يفيد الإشارة إلى أهمية العلة المذكورة من حيث كونها هي الثمرة والنتيجة لعلة قبلها محذوفة؛ فهي العلة الأصلية المقصود بيانها، وما قبلها من علة محذوفة سبيل موصل إليها غير مقصود بيانه؛ فتخصيصها بالذكر للإشارة إلى أهميتها.

والمتأمل يرى أن هذا الوجه يفيد المبالغة بالترقي؛ لأن ذكر الثمرة والنتيجة بعد الإشارة إلى السبب من باب الترقي الذي عرفه الطيبي بقوله: "هو أن يذكر معنى ثم يردف بما هو أبلغ منه"(١).

والمتأمل في الآيات التي ورد فيها هذا الأسلوب، يجد أن هذا الوجه قد جاء في مقامين هما:

أولا: الهداية والإرشاد.

ثانيًا: الامتنان.

أولا: الهداية والإرشاد:

يقول الله (تعالى):

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾(٢)

جاءت هذه الآية تذييلا للحديث عن نهي الرسول (ﷺ) عن طرد الضعفاء من المؤمنين عن مجلسه، وفساد مقصد من يريد ذلك، فالله فصَّل الآيات في ذلك

(١) حاشية الطيبي على الكشاف، ٧١٣/١.

(٢) الآية رقم (٥٥) من سورة الأنعام.

تفصيلا كاملا؛ ليتضح سبيل المشركين الذين يريدون طرد الضعفاء، ويتميز عن طريق المؤمنين(١).

ويأتي أسلوب تقدم الواو على لام التعليل في قوله (تعالى): ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ حيث تقدمت الواو على لام التعليل، وفصلت بين التعليل والمعلل، وهو قوله (تعالى): ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾.

وقد جاء هذا الأسلوب للإيماء إلى أهمية العلة المذكورة، من حيث كونها ثمرة لعلة قبلها محذوفة، فالتقدير: نفصِّل الآيات؛ ليفهموها حق فهمها، ولتستبين سبيل المجرمين، فوضوح طريقة المجرمين، وظهور منهجهم، هو المقصود الأصلي من تفصيل الآيات، أما فهم الآيات حق فهمها، فهو مجرد وسيلة وطريق يحقق هذا الهدف المنشود.

يقول السمين: "والمعنى: وكذلك نفصل الآيات لتستبين لكم ولتستبين"(٢).

والإشارة إلى أن العلة المذكورة ثمرة ونتيجة لعلة قبلها محذوفه يفيد المبالغة في الهداية والإرشاد؛ فالله لا يكتفي بإعطاء الفهم، بل يتبعه بما هو أقوى منه، وهو وضوح الطريق، واستبانة المنهج؛ فذكر الثمرة والنتيجة من باب الترقي الذي يفيد المبالغة.

وإسناد الوضوح للسبيل في قوله (تعالى): ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ من باب المجاز العقلي؛ حيث أسند الفعل المبني للفاعل إلى مفعوله، والأصل:

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ٧/ ٢٦٠، وتفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق ابن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م، ٢/ ٢٩٧.

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق ، ٦٥٦/٤.

ولتستبين يا محمد سبيل المجرمين، وهذا المجاز يؤكد وضوح هذه الاستبانة المترتبة على تفصيل الآيات؛ فالوضوح شديد؛ لدرجة أن السبيل نفسها أصبحت فاعلا للوضوح.

والمتأمل في القراءة الأخرى بنصب سبيل على المفعولية[١] يراها تشير إلى أهمية أن يستبين الرسول (ﷺ) سبيل المجرمين؛ لأنه هو القائد والمدبر لشئون هذه الأمة، فيجب أن تتضح سبيلهم له، حتى يستطيع أن يعاملهم بما يليق بهم.

واستبانة سبيل المجرمين تستلزم استبانة سبيل المؤمنين[٢]، وتخصيصها بالذكر للتنبيه على أهميتها؛ "لأن سفور الكفر، والشر، والإجرام، ضروري لوضوح الإيمان، والخير، والصلاح، وأن أي غبش أو شبهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم ترتد غبشا وشبهة في موقف المؤمنين وفي سبيلهم، فهما صفحتان متقابلتان، وطريقان مفترقتان، ولا بد من وضوح الألوان والخطوط"[٣].

والمتأمل في نظم الآية الكريمة يرى مظاهر الهداية والإرشاد للمؤمنين:

فالكاف في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ليست للتشبيه، وإنما للإشارة إلى أن هذا التفصيل قد بلغ من الكمال مبلغًا عظيمًا؛ لدرجة أنه صار نموذجاً كاملاً، يمكن أن يتخذ مثالاً، يشبه به ما سواه؛ فالمعنى: فصلنا الآيات مثل هذا التفصيل البديع، أي: فصلناها هذا التفصيل البديع نفسه، فقد أفادت الكاف بلوغ المعنى تمامه، فهي بمعنى (مثل) في قولك: مثلك لا يكذب، تريد: أنت لا تكذب[٤].

---

(١) ينظر: تفسير ابن عطية، ٢/ ٢٩٧.

(٢) ينظر: البحر المحيط، ٥٢٩/٤.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق (بيروت، القاهرة)، الطبعة السابعة عشر، ١٤١٢هـ، ٢/ ١١٠٥.

(٤) ينظر: من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ص ٢١٢، وما بعدها.

ويتناسب مع ذلك اختيار مادة (فصل) في قوله (تعالى): ﴿نُفَصِّلُ﴾؛ فهي للإشارة إلى توضيح الآيات وتبيينها وإظهارها إظهارا كاملا لا لبس فيه ولا غموض؛ فالفصل كما يقول الراغب هو "إبانة أحد الشيئين عن الآخر حتى يكون بينهما فرجة"(١)

والتعبير بصيغة (استفعل) التي من معانيها الدلالة على القوة(٢) في قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾؛ للمبالغة في وضوح طريقة المجرمين وظهور منهجهم؛ فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

ونظير هذه الآية في المبنى والمعنى قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٣)

تأتي هذه الآية عقب الحديث عن دلائل الوحدانية من أول قول الله (تعالى): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾(٤)؛ فهي تبين أن الله نوَّع في الآيات، ونقلها من حال إلى حال، وعرضها في صور مختلفة؛ للتتضح الحجة وضوح الشمس، ويعتقد الناس جميعا بصدقها؛ فيؤمن قوم، ويجحد آخرون، ويقول الجاحدون إنه يتلقى ذلك، ويدرسه على خبير بالعلوم والمعارف.

وجاء أسلوب تقدم الواو في قوله (تعالى):

﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ليفيد الإشارة إلى أهمية العلة المذكورة من حيث كونها ثمرة ونتيجة لعلة قبلها محذوفة؛ فالتقدير: نصرف

---

(١) المفردات للراغب، مادة فصل.

(٢) شذا العرف في فن الصرف للحملاوي، ص: ٣٢.

(٣) الآية رقم (١٠٥) من سورة الأنعام.

(٤) جزء من الآية رقم (٩٥) من سورة الأنعام.

الآيات؛ للتتضح تمام الوضوح، فيؤمن بها العالمون، أما الجاحدون فينكرونها ويقولوا درست.

يقول الرازي: "الواو في قوله: وليقولوا عطف على مضمر والتقدير وكذلك نصرف الآيات لنلزمهم الحجة وليقولوا"(١).

فالغاية الأصلية من تصريف الآيات بيان حال المؤمنين للاهتداء بهديهم وبيان حال الجاحدين لتجنب طريقهم، أما وضوح الآيات وفهمها وإلزامهم الحجة، فهو طريق موصل لهذا الهدف المنشود.

ومما جاء في مقام الهداية والإرشاد للإشارة إلى أهمية العلة المذكورة لكونها علة أصلية قوله (تعالى): ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ (٢)

تبين هذه الآية طريق هداية الله لسيدنا إبراهيم عليه السلام؛ حيث أراه بعض مظاهر ملكه للسموات والأرض، وكشف له بعض حقائقهما؛ ليزداد إيمانًا على إيمانه؛ وليكون من المتأكدين بأنه على الحق، وأن مخالفيه على الباطل.

ويأتي أسلوب تقدم الواو على لام التعليل في قوله (تعالى): ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾؛ ليفيد الإشارة إلى أهمية العلة المذكورة، من حيث إنها ثمرة ونتيجة لعلة قبلها محذوفة، فالتقدير: نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض؛ ليستدل على صانعها، وليكون من الموقنين، فكونه من الموقنين مترتب على الاستدلال وثمرة له، ولا شك في أن بيان الثمرة أهم وأولى.

---

(١) تفسير الرازي، ١٠٦/١٣.

(٢) الآية رقم (٧٥) من سورة الأنعام.

يقول البيضاوي: "وليكون من الموقنين أي ليستدل وليكون"(١).

والإشارة إلى أن العلة المذكورة ثمرة ونتيجة لعلة قبلها محذوفة يفيد المبالغة في الهداية والإرشاد، والترقي بإعطاء سيدنا إبراهيم الإيمان واليقين بعد إعطائه الاستدال والفهم؛ فذكر الثمرة والنتيجة بعد الإشارة إلى السبب من باب الترقي الذي يفيد المبالغة.

والمتأمل في نظم الآية الكريمة يرى مظاهر كمال الهداية والإرشاد لسيدنا إبراهيم عليه السلام؛ فاسم الإشارة الموضوع للبعيد في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ يشير إلى الإراءة المذكورة بعده لتفخيمها وتعظيمها، وتأتي الكاف في المضمار نفسه فهي ليست للتشبيه، وإنما للإشارة إلى أن هذه الإراءة قد بلغت مبلغًا عظيمًا يصح به أن تتخذ مثالاً، يشبه به سواه؛ فالمعنى: نري إبراهيم إراءة مثل هذه الإراءة البديعة، أي: أرأيناه هذه الإراءة العظيمة نفسها.

يقول أبو السعود: "والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة"(٢)

ويأتي التعبير بضمير الجمع في قوله: ﴿نُرِيٓ﴾ لإفادة التعظيم، وهذا يناسب مقام الهداية والإرشاد، فهذه الإراءة إراءة عظيمة، نابعة من فاعل عظيم، هو الله جلت قدرته.

كما أن التعبير بكلمة ﴿مَلَكُوتَ﴾ تتناغى مع الإيحاء بعظمة هذه الإراءة، فهي خلاف التعبير بكلمة (مُلك) فالملكوت هو المبالغة في المُلك مع العز والسلطان، فصيغة (فعلوت) تأتي للمبالغة، مثل: جبروت، ورحموت(٣).

---

(١) تفسير البيضاوي، ١٦٩/٢.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ٧/ ٣١٦.

(٣) تفسير أبي السعود، ٣/ ١٤١.

ويأتي الطباق بين السماوات والأرض في قوله (تعالى): ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ ليفيد العموم والشمول، فهذه الإراءة من عظمتها عمت السماوات والأرض.

ثانياً: الامتنـــان:

يقول الله (تعالى):

﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ٣٧ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ (١)

لما سأل موسى ربه أن يشرح له صدره، وييسر له أمره، وأجابه في سؤله، أخذت هذه الآيات في سرد وجوه الإنعام الأخرى على موسى، فهذه الآية جاءت في مقام الامتنان.

ومعنى قوله: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾: لتربي، وتنشأ، برعايتي، وحفظي(٢).

وجاء أسلوب تقدم الواو على لام التعليل في قوله (تعالى): ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ ليفيد الاهتمام بالعلة المذكورة؛ لأنها ثمرة ونتيجة لعلة قبلها محذوفة؛ فالتقدير: ليتعطف عليك، ولتصنع على عيني، فهي المقصود الأصلي وغيرها سبيل وطريق لتحقيقها؛ والمعنى: ليتعطف عليك وليكون العطف والحنو سببا في إحسان التربية؛ فلا يقتلك فرعون حين التقطك، وحين رفضت الرضاعة سعي لإيجاد مرضعة لك، فيكون ذلك سببا في التربية بمن هو ملازم لك، لا ينفك عن الاعتناء بمصالحك.

---

(١) الآية رقم (٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩) من سورة طه.

(٢) ينظر: تفسير الزمخشري، ٣/ ٦٣.

يقول الزمخشري: "ولتصنع: معطوف على علة مضمرة، مثل: ليتعطف عليك، وترأم، ونحوه...إلخ"(١).

والإشارة إلى أن العلة المذكورة ثمرة ونتيجة لعلة قبلها محذوف يفيد المبالغة في الامتنان؛ فالله يزيد في العطاء، ولا يكتفي بإعطاء سيدنا موسى التعطف والتحنن فقط، ولكن يرتقي و يتبعه بما هو أقوى منه، وهو إحسان التربية.

والتعبير بمادة الإلقاء وتعديها بحرف الاستعلاء في قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ يوحي بعموم وشمول تلك المحبة لسيدنا موسى عليه السلام؛ فهي كالشيء يلقي على الشيء ليعمه ويشمله.

ويأتي التنكير في قوله: ﴿مَحَبَّةً﴾ للإيحاء بتفخيم تلك المحبة وتعظيمها، وزرعها في النفوس حتى إن عدو الله فرعون قد أحبه(٢).

وقوله: ﴿مِّنِّي﴾ يحتمل أن يكون متعلق بمحذوف صفة لمحبة، أي محبة كائنة مني، وهو في هذه الحالة يؤكد معنى التعظيم المستفاد من تنكير لفظ المحبة؛ فهي محبة عظيمة من فعل الله (ﷻ)، ويحتمل أن يكون متعلقا بقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ﴾، أي أحببتك، ومن أحبه الله أحبته قلوب الناس لا محالة(٣).

والتعبير بمادة (صنع) في قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾، يوحي بحسن التعهد، والرعاية، والعناية لسيدنا موسى عليه السلام، يقول الراغب الأصفهاني: "الصنع إجادة الفعل...يقال للحاذق المجيد صَنَعٌ وللحاذقة المجيدة صناع"(٤).

---

(١) تفسير الزمخشري، ٣/ ٦٣.

(٢) تفسير أبي السعود، ٦/ ١٥.

(٣) تفسير أبي السعود، ٦/ ١٥.

(٤) المفردات للراغب، مادة صنع.

وتقييد الصناعة بقوله ﴿عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ يؤكد شدة الرعاية والعناية بموسى عليه السلام؛ فالمقصود بالعين هنا التفقد والمراقبة، وهذا من باب المجاز المرسل الذي علاقته السببية.

يقول الراغب: "قال بعض الحكماء: إن الله (تعالى) إذا أحب عبدا تفقده كما يتفقد الصديق صديقه"(١).

وقرئ {ولتَصنَع} بفتح التاء بصيغة المبني للمعلوم(٢)، وهذه القراءة (أيضا) من قبيل العناية والاهتمام بأمر موسى عليه السلام؛ لأن معناها: وليكون عملك على عين مني حتى لا تخالف به أمري، فالحفظ والرعاية هنا في العمل.

(١) المفردات للراغب، مادة صنع.

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية، ٤/ ٤٤.

المبحث الرابع

الإشارة إلى أن العلة المذكورة علة إضافية

وإذا كان أسلوب تقدم الواو على لام التعليل في السابق يفيد الاهتمام بالعلة المذكورة من حيث كونها العلة الأصلية، فإنه هنا يفيد (أيضا) الإشارة إلى أهمية العلة المذكورة، ولكن من حيث كونها علة إضافية.

فمنبع الاهتمام بالعلة المذكورة هنا كونها زيادة في التعليل، وإضافة على العلة الأصلية التي حذفت للعلم بها؛ فتخصيصها بالذكر للإشارة إلى أهميتها من هذا الجانب.

والمتأمل يرى أن هذا الوجه يفيد المبالغة بالتتميم؛ لأن ذكر العلة الإضافية بعد الإشارة إلى العلة الأصلية من باب التتميم الذي عرفه البلاغيون بقولهم: "أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نكتة كالمبالغة"(١)، وقد فرَّق الطيبي بين التتميم والترقي، بأن التتميم عكس الترقي؛ فالترقي الانتقال من الأدني للأعلى، أما التتميم فهو "الأخذ بما هو الأعلى في الشيء، ثم ما هو أحط منه ليستوعب جميع ما يدخل تحت ذلك الشيء"(٢).

والمتأمل في الآيات التي ورد فيها هذا الأسلوب، يجد أن هذا الوجه قد جاء في خمسة مقامات هي:

أولاً: الامتنان

ثانيًا: إثبات البعث

ثالثًا: الدفاع عن المؤمنين

رابعا: النصح والإرشاد

خامسا: بيان مهمة القرآن الكريم.

---

(١) الإيضاح ضمن البغية, عبد المتعال الصعيدي, مكتبة الآداب, القاهرة, الطبعة التاسعة,٢٠٠٠م، ٤٢/ ٣٥٨.

(٢) حاشية الطيبي على الكشاف، ٧١٦/١.

أولاً: الامتنـــان:

يقول الله (تعالى):

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥﴾ (١)

جاءت هذه الآية للامتنان على المؤمنين، وبيان سماحة الشرع الحنيف في التخفيف عليهم في أمر الصيام، فهي تبين أن من كان مريضًا أو على سفر له أن يفطر، وعليه القضاء بعد ذلك.

ويأتي أسلوب تقدم الواو على لام التعليل في قوله (تعالى): ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

وقد جاء هذا الأسلوب ليفيد الإشارة إلى أهمية العلة المذكورة من حيث كونها زيادة في التعليل وإضافة على العلة الأصلية المحذوفة المشار إليها بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾، فالتقدير: خفف عنكم في أحكام الصيام للتيسير عليكم، ولإكمال العدة، وللتكبير، وللشكر.

يقول الشهاب: "وعندي أنه ميل مع المعنى والتوهم؛ لأنّ ما قبله علة للترخيص، فكأنه قيل: رخص لكم في ذلك لإرادته بكم اليسر دون العسر ولتكملوا"(٢).

---

(١) الآية رقم (١٨٥) من سورة البقرة.

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢/ ٢٧٨، وينظر: التحرير والتنوير، ٢/ ١٧٥.

والإشارة إلى أن العلة المذكورة زيادة في التعليل، يفهم منه المبالغة في الامتنان؛ فالله شرع أحكام الصيام على هذا النحو للتيسير والتخفيف عليكم، وفوق هذا لتكملوا عدة الشهر، بأن تصوموا أيامه كاملة؛ فتحصلوا خيراته، ولا يفوتكم شيء من بركاته، فهو أيام معدودات، ومن كان مريضا أو على سفر فعليه قضاء ما فاته في أيام أخر، ولتكبروا الله وتعظموه على هدايته إياكم إلى هذه الأحكام النافعة، ولتشكروه وتواظبوا على الثناء عليه؛ فهو الرؤوف الرحيم بعباده(١)؛ فذكر العلة الإضافية بعد الإشارة إلى العلة الأصلية، من باب التتميم الذي يفيد المبالغة.

وعطف الشكر على التكبير من باب عطف العام على الخاص؛ فالشكر أعم من التكبير؛ لأن التكبير تعظيم يتضمن شكرا، فهو نوع خاص من الشكر، والتكبير يكون بالأقوال أما الشكر فقد يكون بالأقوال والأفعال فمن الشكر بالأفعال تقديم الصدقات في أيام الصيام وأيام الفطر ولبس أحسن الثياب في العيد(٢).

والمتأمل في هذه الآية والسياق السابق عليها يرى أن التخفيف والتيسير أحد مظاهر الرحمة التي نبهت عليها الآيات، وقد جمعها القفال في قوله:

"انظروا إلى عجيب ما نبه الله عليه من سعة فضله ورحمته في هذا التكليف، وأنه (تعالى) بين في أول الآية أن لهذه الأمة في هذا التكليف أسوة بالأمة المتقدمة، والغرض منه ما ذكرنا أن الأمور الشاقة إذا عمت خفت، ثم ثانيا بين وجه الحكمة في إيجاب الصوم، وهو أنه سبب لحصول التقوى، فلو لم يفرض الصوم لفات هذا المقصود الشريف، ثم ثالثا: بين أنه مختص بأيام معدودة، فإنه لو جعله أبدا أو في أكثر الأوقات لحصلت المشقة العظيمة، ثم بين رابعا: أنه خصه من الأوقات بالشهر الذي أنزل فيه القرآن لكونه أشرف الشهور بسبب هذه الفضيلة، ثم بين خامسا: إزالة المشقة في إلزامه فأباح تأخيره لمن شق عليه من

(١) ينظر: التفسير الوسيط، ١/ ٣٨٩.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ٢/ ١٧٧.

المسافرين والمرضى إلى أن يصيروا إلى الرفاهية والسكون، فهو (سبحانه) راعى في إيجاب الصوم هذه الوجوه من الرحمة، فله الحمد على نعمه كثيرا"[١].

ومما جاء في مقام الامتنان للإشارة إلى أهمية العلة المذكورة لكونها علة إضافية قوله (تعالى): ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ [٢] .

فمع الابتلاء الذي تعرض له يوسف (عليه السلام) إلا أن نعم الله عليه كانت كثيرة، وجعل الله له من العسر يسرًا، ومكن له في بيت العزيز؛ ليكون ذلك سبيلا لتوليه خزائن الأرض.

والمقصود من التمكين في الأرض هنا التمكين في بيت العزيز؛ فهو سبب لتوليه خزائن الأرض بعد ذلك[٣].

ويأتي أسلوب تقدم الواو على لام التعليل في قوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾؛ للدلالة على أن العلة المذكورة زيادة في التعليل، وإضافة على العلة الأصلية المحذوفة، والمفهومة من السياق في قوله:﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾، فالعلة الأصلية من التمكين هي التكريم، ويؤكد ذلك قوله: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾؛ فاللام تنبيء عن النفع، وعلى هذا يكون التقدير: مكنا ليوسف في بيت العزيز لنكرمه ولنعلمه من تأويل الأحاديث، "إذا بقي لا شغل

(١) تفسير الرازي، ٥/ ٢٤٣.

(٢) الآية رقم (٢١) من سورة يوسف.

(٣) ينظر: تفسير أبي السعود، ٤/ ٢٦٣.

له ولا هم له سوى العلم صار ذلك من أسباب تعلمه علما كثيرا، من علم الأحكام، وعلم التعبير، وغير ذلك"[1].

والإشارة إلى أن العلة المذكورة زيادة في التعليل يفيد المبالغة في الامتنان؛ فالمولى (ﷻ) قد امتن على يوسف بالتمكين ليعيش مكرما في بيت العزيز، ثم ليكون ذلك التمكين سببا في تعلمه علما غزيرا؛ فـذكر العلة الإضافية بعد الإشارة إلى العلة الأصلية من باب التتميم الذي يفيد المبالغة.

والمتأمل في نظم الآية الكريمة يرى مظاهر الامتنان على سيدنا يوسف عليه السلام؛ فاسم الإشارة الموضوع للبعيد في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ يشير إلى التمكين المذكور بعده لتفخيمه وتعظيمه، والكاف ليست للتشبيه، وإنما تجري في المضمار نفسه؛ فهي للإشارة إلى أن هذا التمكين قد بلغ من الكمال مبلغًا عظيمًا لدرجة أنه صار نموذجاً كاملاً، يمكن أن يتخذ مثالاً، يشبه به سواه؛ فالمعنى: مكنا ليوسف مثل هذا التمكين البديع، أي: مكناه هذا التمكين العظيم نفسه[2].

والتعبير بضمير المتكلم المعظم لنفسه في قوله:﴿مَكَّنَّا﴾ يشير إلى قوة هذا التمكين وثباته، فهو صادر من قوي قادر على تحويل الشيء إلى ضده، وجعل العسر يسرًا.

وتقييد التمكين بكونه في الأرض مع أن التمكين في بيت العزيز فيه إشارة إلى قوة هذا التمكين، وأنه سبب لتمكينه في الأرض.

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م، ص ٣٩٥.

(٢) ينظر: من بلاغة القرآن، ص ٢١٢، وما بعدها.

ومما جاء في مقام الامتنان للإشارة إلى أهمية العلة المذكورة لكونها علة إضافية قوله (تعالى): ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

جاءت هذه الآية للامتنان على الناس بإرسال الرياح، حيث عددت الأغراض التي تعود على الناس من وراء إرسالها، فهي للبشارة بالمطر، ثم لما يتبع هبوبها من منافع مثل تذرية الحبوب، والقضاء على العفونة، ولتسيير السفن في البحار، ولطلب الرزق عن طريق تجارة البحر، ولما يتبع ذلك من حافزية على شكر الله.

ويأتي أسلوب تقدم الواو على لام التعليل في قوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، حيث تقدمت الواو على لام التعليل، وفصلت بين التعليل والمعلل، وهو قوله (تعالى): ﴿يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾.

وقد جاء هذا الأسلوب ليفيد الإشارة إلى أهمية العلة المذكورة من حيث كونها زيادة في التعليل، وإضافة على العلة الأصلية؛ فحصول الخصب بعد المطر، وتسيير السفن في البحار، وتذليلها لتكون وسيلة لطلب الرزق، وإثارة الدافعية على الشكر، علل إضافية تأتي بعد العلة الأصلية المحذوفة المشار إليها بقوله: ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾، أي: مبشرات بالمطر، فالحال والصفة قد يفهم منهما معنى التعليل، فالتقدير: يرسل الرياح لتبشركم بالمطر وليذيقكم من رحمته.

يقول السمين: "قوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ إما عطف على معنى ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾؛ لأن الحال والصفة يفهمان العلة، فكأن التقدير: ليبشر وليذيقكم...إلخ"(٢).

---

(١) الآية رقم (٤٦) من سورة الروم.

(٢) الدر المصون، ٩/ ٥٠.

فهذا الأسلوب يفيد زيادة الامتنان على الناس، بإعطائهم العلل الفرعية مع العلة الرئيسية؛ فمن نعم الله علينا البالغة إرسال الرياح فهي تأتينا بالمطر، وفوق هذا تذري الحبوب، وتقضي على الجراثيم، وتسير السفن في البحار، وغير ذلك.

وعبر بالإذاقة في قوله (تعالى): ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾، وهي موضوعة للشيء القليل؛ للإشارة إلى قلة متاع الدنيا بالنسبة إلى الآخرة، فمهما استمتع الإنسان تظل متعته ضيئلة بالنظر لمتاع الآخرة العظيم الدائم(١).

والخطاب في قوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ لتشريف المخاطبين وتكريمهم؛ لأن المقام مقام امتنان يناسبه زيادة العطاء(٢).

وإسناد الفعل إلى مفعوله في قوله (تعالى): ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ من باب المجاز العقلي، فالأصل أن يقال في غير القرآن: وليجري الله الفلك، وفائدته المبالغة في تصوير ذلك الجريان، والإشارة إلى قوة الإعجاز في أن تطفو السفينة فوق الماء ثم تجري، والأصل بحسب الطبيعة أن تسقط إلى القاع(٣).

ويأتي العطف في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ للإشارة إلى أن التوفيق للشكر على النعم نعمة في حد ذاتها؛ لذا جاز عطفها بالواو على النعم السابقة(٤).

ومن أمثلة المبالغة في الامتنان بالإشارة إلى أن العلة المذكورة علة إضافية قوله (تعالى): ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾(٥).

---

(١) ينظر: تفسير الرازي، ٢٥/ ١٠٧.

(٢) ينظر: تفسير الرازي، ٢٥/ ١٠٧.

(٣) ينظر: تفسير الرازي، ٢٥/ ١٠٧.

(٤) ينظر: تفسير الرازي، ٢٥/ ١٠٨.

(٥) الآية رقم (٢٠) من سورة الفتح.

تأتي هذه الآية في سياق الحديث عن صلح الحديبية، وما تبعه من فتح خيبر، وفيها يبشر الله المؤمنين بالفتوحات الكثيرة، والمغانم الوفيرة، ويمتن على المؤمنين بأنه عجل لهم بغنيمة خيبر، وصرف اليهود عنهم، حيث هموا بالغارة على بيوت الصحابة، وفيها أزواجهم، وعيالهم، وأموالهم، وهذه النعم والبشارات علامة للمؤمنين على رعاية الله (ﷻ) لهم، ورضاه عنهم، وسببًا في سلوكهم طريقًا واضحًا في التوكل على الله، والثقة في نصره.

ويأتي أسلوب تقدم الواو على لام التعليل في قوله (تعالى): ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، حيث فصلت الواو بين التعليل والمعلل، وهو قوله (تعالى): ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾.

وقد جاء هذا الأسلوب للتنبيه على أن العلة المذكورة علة إضافية على العلة الأصلية المفهومة من السياق في قوله (تعالى): ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾، فاللام في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ تشير إلى أن العلة الأصلية من التعجيل والكف هو النفع الحاصل لهم؛ فالتقدير: لتنتفعوا، ولتكون آية للمؤمنين من بعدكم.

يقول الرازي: "وقوله (تعالى): ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على مفهوم؛ لأنه لما قال الله (تعالى): ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾، واللام ينبئ عن النفع، كما أن على ينبئ عن الضر، القائل: لا علي ولا ليا، بمعنى لا ما أتضرر به، ولا ما أنتفع به، ولا أضر به، ولا أنفع، فكذلك قوله: فعجل لكم هذه لتنفعكم ولتكون آية للمؤمنين"(١).

فهذا الأسلوب يفيد أن (جعل التعجيل والكف آية للمؤمنين) علة إضافية، ومصلحة فوق المصلحة الأصلية، ومنحة إلهية زائدة؛ فالغرض الأصلي من التعجيل والكف هو منفعة الصحابة بهذه المغانم، وحمايتهم من غدر اليهود، وفوق

(١) تفسير الرازي، ٢٨/ ٨٠.

هذا وزيادة عليه أن يكون التعجيل والكف آية للمؤمنين، يستدلون بهما على رعاية الله لهم، وعنايته بهم، فالله حافظهم وناصرهم على سائر أعدائهم، مع قلة عددهم، وهذا يناسب مقام الامتنان.

وذكر العلة الإضافية بعد الإشارة إلى العلة الأصلية، من باب التتميم للمبالغة في ذكر المنافع المترتبة على التعجيل والكف.

وتنكير آية في قوله (تعالى): ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً﴾؛ للإشارة إلى أن ما حدث آية عظيمة، تدل بوضوح على رعاية الله (ﷻ) لهم، ورضاه عنهم.

ويأتي العطف في قوله: ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾؛ للتأكيد على عظم هذه الآية، فهي تهديهم (بعد أن أعلمتهم برعاية الله لهم) إلى طريق التوكل على الله والثقة بنصرة.

والتعبير بعنوان الإيمان في قوله (تعالى): ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ للدلالة على السبب الذي من أجله استحقوا هذا التكريم؛ فهم لصدق إيمانهم استحقوا العناية، والرعاية، والهداية.

ونظم الآية الكريمة واضح في الدلالة على التكريم، والعطاء، والامتنان، ويأتي في صدارة ذلك التعبير بالوعد في قوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ﴾ بدلا من العطاء مثلا؛ للإيحاء بوجوب التنفيذ، ففي الوعد يقطع الواعد عهدًا على نفسه أو أمام غيره على تنفيذ ما وعد به.

وإسناد الوعد للفظ الجلالة في قوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ فيه مزيد تأكيد على تحقيقه؛ فالله صاحب صفات الجلال والكمال، هو الذي أخذ العهد على نفسه بتنفيذ ما وعد.

والتعبير بصيغة منتهى الجموع في قوله: ﴿مَغَانِمَ﴾؛ للتأكيد على كثرتها، فهي مغانم كثيرة كما وضحتها الصفة بعدها.

ويأتي الوصف ﴿تَأۡخُذُونَهَآ﴾ لتأكيد التحصيل والانتفاع، فهي مغانم تأتيهم، وينتفعون بها تمام الانتفاع.

ثانيا: إثبات البعث

يقول الله (تعالى): ﴿ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (١)

وردت هذه الآية لإثبات البعث والنشور بعد الفناء؛ فهي تذكر قصة رجل مر على قرية خاوية من سكانها، ساقطة سقوفها على مبانيها، فقال مستبعدًا حياتها مرة ثانية: كيف يحيي الله هذه القرية بعد خرابها؟ فأراد الله أن يضرب له مثلاً من نفسه، فأماته مائة عام، ثم أحياه؛ ليثبت له وللعالمين قدرته (ﷻ) على البعث.

ويأتي أسلوب تقدم الواو على لام التعليل في قوله (تعالى): ﴿وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ﴾.

وقد جاء هذا الأسلوب للإشارة إلى أهمية العلة المذكورة من حيث كونها زيادة في التعليل، وإضافة على العلة الأصلية التي أشار إليها السياق في قوله (تعالى): ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾، وقوله: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾؛ فالأمر بالنظر فيهما محمول على الاعتبار؛ "لأنه ناظر إلى ذلك لا محالة، والمقصود

(١) الآية رقم (٢٥٩) من سورة البقرة.

اعتباره في استبعاده أن يحيي الله القرية بعد موتها"[1]، فالتقدير: فعلنا ذلك لتعلم قدرتنا على الإحياء، وفوق هذا ليعلم الناس جميعا ذلك.

يقول العكبري: "﴿وَلِنَجْعَلَكَ﴾: معطوف على فعل محذوف، تقديره: أريناك ذلك لتعلم قدر قدرتنا ولنجعلك...إلخ"[2].

والإشارة إلى أن العلة المذكورة زيادة في التعليل يفهم منه المبالغة في إثبات قدرة الله على البعث، فالله (ﷻ) يريد من وراء هذا الإحياء العبرة للشخص نفسه، ثم العبرة للناس جميعًا إنسهم وجنهم، بتوسيع دائرة الاعتبار، والخروج بها من حيز الفرد إلى حيز الجماعة، فالتقدير: أريناك ذلك لتعتبر في نفسك، ثم ليعتبر الناس جميعًا؛ فذكر العلة الإضافية بعد الإشارة إلى العلة الأصلية، من باب التتميم الذي يفيد المبالغة.

والتعبير بضمير المتكلم المعظم نفسه في قوله (تعالى): ﴿وَلِنَجْعَلَكَ﴾ يفيد التعظيم، والإشارة إلى قوة هذه الآية على إثبات البعث، ويتناغى مع هذه الدلالة تنكير لفظ ﴿ءَايَةً﴾، فهو (أيضًا) للتعظيم والتفخيم.

وإيثار لفظ الناس في قوله (تعالى): ﴿لِّلنَّاسِ﴾ دون المؤمنين مثلاً للتعميم؛ ليشمل الناس جميعًا، فهي آية تصلح أن يعتبر منها الناس جميعًا: مؤمنهم، وكافرهم.

وتذييل الآية بقوله (تعالى): ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يفيد وقوع الاعتبار له؛ مما يؤكد قوة هذه الآية في إحداث الاعتبار.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣/ ٣٧.

(٢) التبيان في إعراب القرآن، عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، (دط)، (دت)، ١/ ٢١٠.

وعطف هذا التذييل بالفاء يشير إلى سرعة وقوع الاعتبار، مما يفهم منه قوة هذه الآية في إثبات ما ترنو إليه من وقوع البعث.

ولهذا التذييل قراءة أخرى بفعل الأمر {اعلم}، والخطاب بها يصلح لكل مخاطب، فهي تحث غيره على الاعتبار.

والمتأمل لنظم الآية الكريمة، يراه يحث على التأمل والاعتبار لإثبات البعث، فالاستفهام في قوله (تعالى): ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ لتنبيه المخاطب للنظر، والتأمل، والاستدلال، حتى يصل إلى حقيقة الأمر، ويعلم أنه قد أماته الله، ثم ظل مدة طويلة، ثم أحياه بعد ذلك.

وقد يكون الاستفهام للتقرير؛ لأن المخاطب بسبب غفلته أصبح في منزلة المنكِر للبقاء مدة طويلة، فأرادت الآية أن تثبت له البعث، وتدفعه إلى الإقرار، يقول ابن عطية: "فسأله الله (تعالى) بواسطة الملك كم لبثت؟ على جهة التقرير"(١).

ويأتي الأمر بالنظر في قوله (تعالى): ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، وتكراره في قوله (تعالى): ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾؛ للحث على التأمل لأخذ العبرة والعظة من رؤية الطعام والشراب لم يتغيرا، مع كونهما من الأشياء التي تفسد سريعًا، ومن رؤية الحمار وقد بليت أعضاؤه، وبقيت عظامه؛ فهذا دليل على البقاء مدة طويلة.

ثالثاً: الدفاع عن المؤمنين:

يقول الله (تعالى):

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢)

(١) تفسير ابن عطية، ١/ ٣٤٨.

(٢) الآية رقم (١٧) من سورة الأنفال.

تتحدث هذه الآية عن تأييد الله للمسلمين في غزوة بدر، فتخبر بأن ما حدث من ظفر ونصر لم يكن بقوتهم وشجاعتهم، وإنما كان بتوفيق الله وإعانته لهم على المشركين؛ حيث أمدهم بالملائكة، وقوى قلوبهم، وخذل المشركين، وقذف في قلوبهم الرعب(١)

ويأتي أسلوب تقدم الواو على لام التعليل في قوله (تعالى): ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾، حيث فصلت الواو بين التعليل والمعلل، وهو قوله (تعالى): ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

ومعنى البلاء الحسن: هو النصر، والغنيمة(٢).

وقد جاء هذا الأسلوب للتلويح بأن العلة المذكورة زيادة في التعليل، وإضافة على العلة الأصلية المفهومة من السياق في قوله (تعالى): ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾، فالغاية التي تحققت من القتال، هي قتل

---

(١) يقول القرطبي: " قوله (تعالى): ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ ، أي يوم بدر. روي أن أصحاب رسول الله (ﷺ) لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل: قتلت كذا، فعلت كذا، فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك. فنزلت الآية إعلاما بأن الله (تعالى) هو المميت والمقدر لجميع الأشياء، وأن العبد إنما يشارك بتكسبه وقصده". تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ. ١٩٦٤م، ٧/ ٣٨٤.

ويقول ابن كثير: "قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: رفع رسول الله (ﷺ) يديه (يعني يوم بدر)، فقال: " يا رب إن تهلك هذه العصابة، فلن تعبد في الأرض أبدا"؛ فقال له جبريل: "خذ قبضة من التراب، فارم بها في وجوههم"؛ فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين". تفسير ابن كثير، ٤/ ٣٠.

(٢) ينظر: تفسير البيضاوي، ٣/ ٥٤.

المشركين والقضاء عليهم، فهي العلة الأصلية؛ وتأتي بعدها العلة الإضافية، وهي: الإنعام على المؤمنين بالنصر والغنيمة، وعلى هذا يكون التقدير: ولكن الله رمي ليقتل المشركين، ويقضي على الشرك، ولينعم على المؤمنين بالنصر والغنيمة واستجابة الدعاء.

يقول ابن عاشور: "وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم، عطف على محذوف يؤذن به قوله: فلم تقتلوهم الآية وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ الآية، فإن قتلهم المشركين وإصابة أعينهم كانا الغرض هزم المشركين؛ فهو العلة الأصلية، وله علة أخرى، وهي أن يبلي الله المؤمنين بلاء حسنا"(١).

فهذا الأسلوب يفيد زيادة الاهتمام بالمؤمنين؛ حيث يشير إلى أن العلة المذكورة علة إضافية، ومصلحة فوق المصلحة الأصلية، ومنحة إلهية زائدة؛ فالعلة الأصلية من هذا التأييد الإلهي هي قتل المشركين والقضاء على الشرك، والعلة الإضافية هي الإحسان إلى المؤمنين بالنصر، والغنيمة، والأجر، واستجابة دعائهم، وهذا يناسب مقام الدفاع عن المؤمنين، وإظهار العناية بأمرهم.

وحذف العلة الأصلية هنا للإيجاز؛ لأن السياق يشير إليها بوضوح.

وذكر العلة الإضافية بعد الإشارة إلى العلة الأصلية من باب التتميم؛ للمبالغة في بيان العناية بالمؤمنين، وإظهار الاهتمام بشأنهم.

والمتأمل في نظم الآية الكريمة يرى رعاية الله للمؤمنين واهتمامه بهم واضحًا جليًا؛ فالتعبير بلفظ الجلالة في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ﴾، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ يفيد التنويه بشأن هذا النصر، فهو من الله صاحب صفات الكمال والجلال.

والتعبير بعنوان الإيمان في قوله (تعالى): ﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ للتنويه بشأن هؤلاء المنصورين، وبيان أن سبب معونتهم هو إيمانهم، فبسبب إيمانهم قاتل الله معهم، وسدد خطاهم، ونصرهم على أعدائهم.

---

(١) التحرير والتنوير، ٩/ ٢٩٦.

والتعبير بالاسم ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دون الفعل مثلا (الذين آمنوا) للإشارة إلى رسوخهم في الإيمان(١).

والتنصيص على أن هذا العطاء من الله في قوله: ﴿مِنۡهُ﴾، مع أن ذلك مفهوم من السياق؛ للتنبيه على أن هذا العطاء منحة خالصة من الله، ليس للبشر فيه أي دخل.

ويأتي التذييل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لتأكيد الرعاية والعناية بالمؤمنين؛ فالله سميع لدعائهم، عليم بأحوالهم الداعية للرعاية والاهتمام.

رابعاً: النصح والإرشاد

يقول الله (تعالى):

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾(٢)

تبين هذه الآية ما قاله سيدنا عيسى (عليه السلام) لقومه، حينما بعثه الله إليهم، وفيها يمتن عليهم بأن الله أرسله إليهم بالمواعظ، والتشريعات، والأحكام التي تضبط حياتهم، وتجلب لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

ويأتي أسلوب تقدم الواو على لام التعليل في قوله (تعالى): ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾، حيث تقدمت الواو على لام التعليل وفصلت بين التعليل والمعلل، وهو قوله (تعالى): ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾.

وقد جاء هذا الأسلوب ليفيد أن العلة المذكورة علة إضافية، فهو يفيد المبالغة في نصح وإرشاد قوم عيسى عليه السلام؛ حيث جاءهم بالحكمة، وهي التوراة، أي أرسل إليهم ليعلمهم الحكمة، وفوق ذلك ليصحح بعض الأمور التي اختلفوا فيها.

---

(١) ينظر: نظم الدرر، ٨/ ٢٤٤.

(٢) الآية رقم (٦٣) من سورة الزخرف.

يقول أبو السعود: "﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمُ﴾ عطف على مقدر ينبىء عنه المجيء بالحكمة، كأنه قيل قد جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها ولأبين لكم"(١).

ولما كان هذا الاسلوب يفيد هذه المبالغة في النصح والإرشاد، جاء تفريعًا عليه قوله (تعالى): ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦٤﴾ (٢)، أي: إذا كان ما جئتكم به بهذه المكانة والمنزلة، فيجب عليكم أن تتقوا الله، وأن تطيعوني فيما جئتكم به، فأخلصوا العبادة والطاعة لله، فذلك هو الطريق القويم الذي يوصلكم إلى سعادة الدارين.

وقد جاء التعبير بلفظ الحكمة، بدلًا من التوراة (مثلا في غير القرآن) للمبالغة في المنافع والمصالح التي تشملها التوراة؛ فالحكمة "عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم"(٣).

ويأتي التأكيد بـ ﴿قَدۡ﴾ في قوله: ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾؛ للاهتمام بالخبر في حد ذاته، والدلالة على علو شأنه، فما جاءهم به شأن عظيم، يستحق التوكيد.

وقد يكون التوكيد لتنزيل المخاطب منزلة المتردد والشاك في صحة الخبر؛ لأن الغالب في شأن المرسل إليهم الشك والتكذيب فيما جاء به الرسل.

ويأتي الأمر بتقوى الله في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ للحث على الاستجابة للأمر بالطاعة بعده في قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾؛ فالتقوى إذا استقرت في القلوب، سهلت الطاعة على النفوس، وانقادت الجوارح للأوامر والنواهي.

---

(١) تفسير أبي السعود، ٨/ ٥٣.

(٢) الآية رقم (٦٣، ٦٤) من سورة الزخرف.

(٣) لسان العرب، مادة حكم.

ويأتي قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطُ مُسْتَقِيمٌ﴾ في الآية التالية لهذه الآية؛ لتأكيد المبالغة في الامتنان، فما جاء به إليهم هو الصراط الواضح القويم الموصل للخيرات، والدارئ للمفاسد والمضرات.

خامسا: بيان مهمة القرآن الكريم:

يقول الله (تعالى):

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (١)

لما أبطل الله في الآية السابقة قول من قال ما أنزل الله على بشر من شيء، ناسب ذلك أن يذكر في هذه الآية أن القرآن الكريم كتاب الله أنزله على محمد (ﷺ)(٢).

وتبين هذه الآية أن القرآن الكريم إنما أنزل للبركات فهو كتاب "كثير خيره دائم بركته ومنفعته، يبشر بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية"(٣)، كما أنزل للإنذار والتخويف؛ فهو دائر بين الترغيب والترهيب.

ويأتي أسلوب تقدم الواو على لام التعليل في قوله (تعالى): ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ حيث وقعت الواو حاجزا في الظاهر بين التعليل والمعلل، وهو قوله تعالى ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ .

ويأتي هذا الأسلوب ليشير إلى أن العلة المذكورة علة إضافية وزيادة على العلة الأصلية المفهومة من سياق الكلام من قوله تعالى ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ؛ فالتقدير: أنزلناه للبركات وتصديق ما تقدمه من الكتب، وللإنذار.

---

(١) الآية رقم (٩٢) من سورة الأنعام.

(٢) تفسير الرازي، ١٣/ ٦٤.

(٣) تفسير الرازي، ١٣/ ٦٤.

يقول الزمخشري: "والتنذير معطوف على ما دل عليه صفة الكتاب، كأنه قيل: أو أنزلناه للبركات، وتصديق ما تقدمه من الكتب والإنذار"(١).

فهذا الأسلوب يشير إلى أن الأصل في القرآن الكريم أنه للتبشير بالخير والهداية إلى كل نفع مثله مثل الكتب السابقة، أما الإنذار والتخويف فهو شيء عارض لأجل بعض النفوس الضعيفة التي لا تستجيب إلا لخطاب التهديد والوعيد.

يقول الرازي في غير هذه الآية: "البشارة تجري مجرى حفظ الصحة، والإنذار يجري مجرى إزالة المرض، ولا شك أن المقصود بالذات هو الأول دون الثاني"(٢).

والإشارة إلى أن العلة المذكورة علة إضافية يفهم منه المبالغة في قدرة هذا الكتاب الحكيم على مخاطبة النفوس، فهو أولا يخاطب الناس بالحسنى ويجذبهم بالإرشاد إلى الخيرات ويبشرهم بالمنافع التي تعود عليهم في حال اتباعه، ثم بعد ذلك ينذر ويخوف مراعاة لبعض النفوس التي لا تستجيب إلا لخطاب التهديد والوعيد.

ونظير هذه الآية في المبني والمعنى قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾(٣) .

فهذه الآية تتحدث عن القرآن الكريم، وتقول: إنه بلاغ، أي كفاية في الوصول إلى كل خير(٤)؛ فكلمة بلاغ مصدر بلغ، ومادة بلغ تدور معانيها حول الوصول، يقال بلغ الشيء يبلغ بلوغا إذا وصل إليه(٥).

ويأتي الإخبار بالمصدر في قوله (تعالى): ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ﴾ للمبالغة في كون القرآن طريقا للوصول إلى كل خير.

---

(١) تفسير الزمخشري، ٢/ ٤٥.

(٢) تفسير الرازي، ٦/ ٣٧٥.

(٣) الآية رقم (٥٢) من سورة إبراهيم.

(٤) ينظر: نظم الدرر، ٤٤١/١٠.

(٥) ينظر: لسان العرب مادة (بلغ).

وجاء أسلوب تقدم الواو على لام التعليل في قوله (تعالى): ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾، حيث قدر العلماء العلة المحذوفة بقولهم: هذا بلاغ للناس لينصحوا به ولينذروا.

يقول الزمخشري: "ولينذروا معطوف على محذوف، أى لينصحوا ولينذروا به بهذا البلاغ"(١).

ويأتي هذا الأسلوب مناسبا لما استهلت به الآية فهو للإشارة إلى أن العلة المذكورة علة إضافية؛ وأن الأصل في القرآن هو التبشير والنصيحة، إما الإنذار والتخويف فهو يأتي اضطرارا لهذه الفئة التي لا تستجيب لخطاب التبشير.

(١) تفسير الزمخشري، ٥٦٨/٢.

تتمـــــة

وفي الختام يجدر بالدراسة التنبيه على أن هناك بعض الآيات التي تحتمل أن تندرج في دائرة هذا الأسلوب، ولكن عند تدقيق النظر رجحت الدراسة أنها خارجة عن إطاره، لوجود علة مذكورة يمكن أن يحمل العطف عليها، وحينئذ فلا داعي لتقدير علة محذوفة؛ لأن "القول بالاستقلال أولى من القول بالإضمار"(١)، والاستقلال هو عدم الإضمار، وبهذا تخرج الآيات عن إطار هذا الأسلوب، وهذه الآيات هي:

١- قول الله (تعالى): ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٢)، يقول أبوحيان:" ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾: الظاهر أنه معطوف على قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ﴾"(٣).

٢- قول الله (تعالى): ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(٤)، يقول الزمخشري: "ولأحل رد على قوله: ﴿بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾(٥) أى جئتكم بآية من ربكم

---

(١) قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، د. حسين بن علي بن حسين الحربي، دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ. ١٩٩٦م، ص ٤٢١.

(٢) الآية رقم (١٥٠) من سورة البقرة.

(٣) البحر المحيط، ٤٤/٢.

(٤) الآية رقم (٥٠) من سورة آل عمران.

(٥) جزء من الآية رقم (٤٩) من سورة آل عمران.

ولأحل لكم، ويجوز أن يكون ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ مردودا عليه أيضا، أى جئتكم بآية وجئتكم مصدقا"[١].

٣. قوله (تعالى): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢] ، يقول السمين الحلبي: "قوله:﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾ فيه ثلاثة أوجه: عطفه على ﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾، وما بينهما اعتراض – كما تقدم – وهذا هو الظاهر. ثانيها: أنه عطف على علة محذوفة تقديره: لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا، ذكره ابن الأنباري، ثالثها: أنه متعلق بفعل محذوف، أي: فعل ذلك لتبتغوا، وفيهما تكلف لا حاجة إليه"[٣].

٤. قول الله (تعالى): ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٤] يقول ابن عاشور: "وقوله ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فإنما تأكيد حرف كي بمرادفه وهو لام التعليل للتنصيص من أول وهلة على أنه معطوف على الفعل المثبت لا على الفعل المنفي"[٥].

---

(١) تفسير الزمخشري، ٣٦٥/١.

(٢) الآية رقم (١٤) من سورة النحل.

(٣) الدر المصون، ٢٠١/٧.

(٤) الآية رقم (١٣) من سورة القصص.

(٥) التحرير والتنوير، ٨٥/٢٠.

٥. قول الله (تعالى): ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾(١)، يقول الزمخشري: "ولتجزى معطوف على بالحق، لأن فيه معنى التعليل"(٢).

٦. قول الله (تعالى): ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ (٣)، يقول السمين: "قوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾ عطف على قوله ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾، أي: لقد أرسلنا رسلنا وفعلنا كيت وكيت ليقوم الناس وليعلم الله"(٤)

(١) الآية رقم (٢٢) من سورة الجاثية.

(٢) تفسير الزمخشري، ٤/٢٩٠.

(٣) الآية رقم (٢٥) من سورة الحديد.

(٤) الدر المصون، ١٠/٢٥٣.

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة الطيبة، والتطواف الممتع بين أزاهير هذا الأسلوب المونق، آن لنا الوقوف على أهم الثمار التي جنيناها منه:

١- تبين للدراسة أن تقدم الواو على لام التعليل أسلوب بلاغي، له خصائصه وطريقته في إيراد المعاني.

٢- كشفت الدراسة أن هذا الأسلوب من الأساليب التي تفرد بها القرآن؛ فبعد البحث كثيرا وحسب اطلاعي لم أقف على شواهد لهذا الأسلوب في غير القرآن.

٣- كشفت الدراسة عن ثراء هذا الأسلوب في دلالاته؛ حيث يفيد إما الإشارة إلى أن وراء أقدار الله حكما خفية، أو الإشارة إلى أن العلة المذكورة علة أصلية، أو الإشارة إلى أن العلة المذكورة علة إضافية.

٤- كانت التفاسير هي الخزانة التي حوت إشارات العلماء حول هذا الأسلوب؛ لأنه أسلوب قرآني خالف المألوف من طرائق البيان.

٥- أصلت الدراسة لهذا الأسلوب نحويا، وبينت أن للنحويين فيه ثلاثة توجيهات، قبلت اثنين، واستبعدت الثالث؛ لعدم ملائمته لبلاغة القرآن.

٦- كانت التوجيهات النحوية هي الأساس الذي بني عليه العلماء إشاراتهم البلاغية لهذا الأسلوب.

٧- استطاعت الدراسة التأصيل البلاغي لهذا الأسلوب بالتأمل في كلام العلماء، والخروج منه بإشارات يفهم منها دلالات هذا الأسلوب.

٨- خالفت الدراسة الزمخشري فيما ذهب إليه من إفادة الأسلوب معنى التكثير، وكون ذلك لازما للإشارة إلى خفاء العلل، ورأت أن ذلك من تحميل النص ما لا يحتمل، ويحتاج إلى دليل.

٩- توصلت الدراسة إلى أن هذا الأسلوب حينما يشير إلى الحكم الخفية لا يأتي إلا في ظلال مقام التسلية والتخفيف، وهذا بلا شك للمناسبة بينهما.

١٠- توصلت الدراسة أن هذا الاسلوب حينما يشير إلى أن العلة المذكورة علة أصلية، أو علة إضافية، يفيد المبالغة بالترقي، أو بالتتميم.

١١- استبعدت الدراسة بعض الآيات التي تحتمل أن تندرج في إطار هذا الأسلوب نظرا لوجود تعليل مذكور يمكن أن يحمل عليه العطف.

□

فهرس المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم.

ثانياً: المصادر والمراجع:

١. أسباب نزول القرآن، علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م

٢. الإيضاح ضمن البغية, عبد المتعال الصعيدي, مكتبة الآداب, القاهرة, الطبعة التاسعة,٢٠٠٠م

٣. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٤. التبيان في إعراب القرآن، عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، (دط)، (دت).

٥. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م.

٦. تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق ابن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٧. تفسير ابن كثير = تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م

٨. تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي (بيروت)، (دط)، (دت).

٩. تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

١٠. التفسير الحديث، دروزة محمد عزت، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٨٣هـ

١١. تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ

١٢. تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: مصطفى حسين أحمد، دار الريان للتراث، القاهرة، ودار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م.

١٣. تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠م

١٤. تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ . ١٩٦٤م.

١٥. تفسير المنار = تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

١٦. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى.

١٧. حاشية الجمل على الجلالين = الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان الجمل، المطبعة العامرة الشرقية، مصر، ١٣٠٢هـ.

١٨. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي = عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي، دار صادر، بيروت، (دط)، (دت).
١٩. حاشية الطيبي على الكشاف = فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، تحقيق: إياد محمد الغوج وآخرون، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى، ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م
٢٠. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ١٤٠٦هـ.
٢١. زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٢٢. سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، ومحمد فؤاد عبدالباقي، وإبراهيم عطوة عوض، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م
٢٣. شذا العرف في فن الصرف، أحمد الحملاوي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م
٢٤. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة السابعة عشر، ١٤١٢هـ.
٢٥. قواطع الأدلة في الأصول، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني، تحقيق: محمد حسن محمد حسن اسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٩م
٢٦. قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، د. حسين بن علي بن حسين الحربي، دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٢٧. لسان العرب، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور المصري، تحقيق عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٢م

٢٨. لطائف الإشارات = تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، الطبعة الثالثة.

٢٩. المحلى بالآثار، ابن حزم علي بن أحمد بن سعيد، دار الفكر، بيروت، (دط)، (دت).

٣٠. معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٣١. معاني القرآن، يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، الطبعة الأولى.

٣٢. المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: وائل أحمد عبدالرحمن، المكتبة التوفيقية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠١٥م

٣٣. من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر، القاهرة، (دط)، (دت).

٣٤. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م